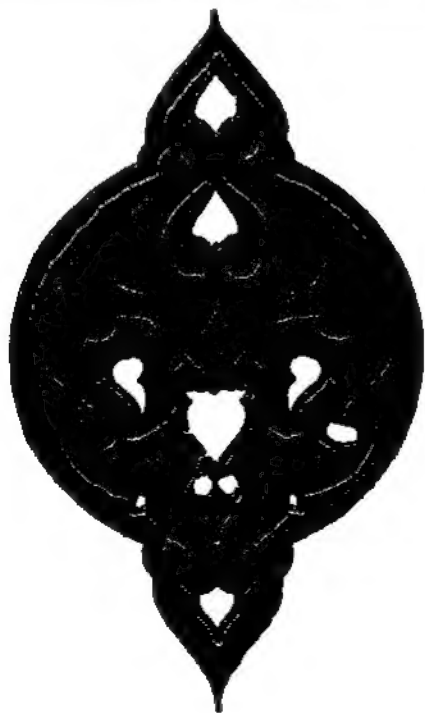


سليمان فياض

# الحجبة الأخيرة للخلافة الإسلامية





العجبة والخلاف في الاستدلال

مختارات ميريت  
إشراف: حسين كشك

سليمان فياض  
الوجه الآخر للخلافة الإسلامية

الطبعة الأولى

القاهرة ١٩٩٩

ميريت للنشر والمعلومات  
المدير العام: محمد هاشم

رقم الإيداع / ٩٩/٢٢٢٧

الغلاف

إهداء من الفنان

حامد العويضي

سليمان فياض

# الحجبة الأخيرة للخلاف الإسلامي

---





## مقدمة

فى بداية العقد الثالث من القرن العشرين سقطت الخلافة العثمانية، وسقط بسقوطها نظام الدولة الدينية والمدنية معاً، وكانت رابعة الخلافات الإسلامية الكبرى، التى عرفها تاريخ المسلمين، بعد خلافة الخلفاء الراشدين.

سقطت هذه الخلافة مثلما سقطت من قبلها الخلافات الأموية، والعباسية، والفاطمية، وكانت كلها خلافات قهر امبراطورية، لأسر ملكية حاكمة، أموية كانت أو هاشمية، أو تركية عثمانية، خلافات يضع خلفاؤها على وجوههم أفتحة الدين، إذا جاز أن يكون للدين قناع، فقد كانوا فى حقيقتهم ملوكاً دنيويين، يستخدمون شعارات الدين لإخضاع البلاد، والعباد، ويهدمون فى كل يوم مقاصد الدين، ومن هذه المقاصد: العدل، وحرية الاعتقاد، والأمن، والتكافل الاجتماعى، والإخاء والمساواة، واستقلال بيت مال المسلمين، عن بيوت أموال الحكاميين.

وحين سقطت الخلافة العثمانية، انفتح الطريق لنظام أو أنظمة الدولة المدنية، المشرعة لقوانين مدنية، فى كل مالم يرد به أمر أو نهى من أمور الدين، والتى تحقق فى الوقت نفسه، بسلطان الحكم الثورى، مقاصد الدين.

وإثر سقوط الخلافة العثمانية آخر الخلافات فى تاريخ المسلمين، تباكى فقهاء ودعاة تراثيو للتقلبة والمعرفة. على ضياع الخلافة، وتجاهلوا كل تاريخ خلافات القهر، التى قصعت بالغزو كل الشعوب، باسم الدين، وفرضت الجزية على كل من أسلم من أبناء هذه الشعوب، مخالفة بهذا الفرض، أمراً من أوامر الدين: لا جزية على من أسلم، فبذلك الأمر عمل الرسول، وبذلك الأمر عمل الخلفاء الراشدين. واتهمت هذه الخلافات القهرية كل المسلمين غير العرب، الذين أسلموا بعد فتح بلادهم بالشعوبية، لأنهم طالبوا بالمساواة، وتحقيق مقاصد الدين، على أيدي الحكام الدنيويين الغازين.

وراح هؤلاء الدعاة يكتبون ويخطبون داعين إلى عودة الخلافة في المقيدين الثالث والرابع من القرن العشرين، وكان نظام الخلافة من أركان الإسلام، وفروض الدين، بعد عصر الخلفاء الراشدين.

وطمع ملوك دنيويون، في أسر عربية أو تركية حاكمة، في المعبودية، وفي مصر، في أن يكونوا خلفاء للمسلمين، في القرن العشرين، واصطنع لهم علماء وفقهاء وكتابا دعاة أشجار أنساب، تنتمي إلى آل البيت.

لكن التيار الإسلامي المدني كان جارفا، ففشلت محاولات العودة إلى النظام للخلافة في العقد الخامس من القرن العشرين.

ومع تنامي حركات الجمعيات والجماعات الإسلامية، في العقد السابع من القرن العشرين، عادت الدعوة إلى نظام عودة الخلافة، واصطنعت هذه الدعوة لنفسها تنظيمات إرهابية، ترفع شعار الجهاد. وتكفر النظم الإسلامية المدنية، وكافة المسلمين في هذه الأنظمة، فعين هؤلاء الدعاة على الهدف الأخير، من كل التنظيمات السرية، والعمليات الإرهابية.

والهدف هو إقامة نظام الخلافة من جديد، والعودة بالحاضر إلى الماضي، بمظالمه، وصراعاته، وفتنه، وثوراته، ومصارع رجاله، وإلغاء حق الشعوب المدني والديني، في تقرير المصير، واختيار نظام الحكم الثوري المدني، واختيار الحاكمين، وتحديد مدة حكم الحاكم، بل مدد المجالس الشورية المنتخبة، تفاديا لقهر الحاكمين، وتجديدا لنظام الحكم وروحه، كل بضع سنين.

ولقد أثبت تاريخ المسلمين، فشل تجارب الخلافات الإسلامية السنية، والشيعة، ويؤدي مؤرخين مسلمين، في العصور الوسطى، وفي العصر الحديث ممن كتبوا عن وقائع الخلافة، وأحداثها، وممن كتبوا عن خفايا بلاطات هذه الخلافات، وعن انشقاق الشعوب الإسلامية، في دول مسلمة، عن جسم دولة الخلافة، هربا بدينهم ونياهم معا من القهر الخلافي ومظالمه، وتحقيقا لحق الشعوب في تقرير مصيرها، واستقلالها لثرواتها، وعائد عملها وعرقها.



وكتبوا عن وقائع مفزعة لخلفاء القهر في حكم الشعوب، وفي صراعات هؤلاء الخلفاء مع بعضهم البعض، ومع أمرائهم وولاتهم وعسائهم.

ومع ذلك يسعى مفهاء العقل، والذين لم يستفيدوا من دروس التاريخ، وتجارب الخلافت الإسلامية، إلى عودة نظام الخلافة، وهم يعلمون أن مثالب هذا النظام في إدارة أمور الدنيا، تطغى على أحلام الحالمين .

لقد اعتننا فيما نكتبه عن عصور الخلافة، على السنة فقهاء ودعاة، وفي كتب التربية والتعليم، أن نتحدث عن ازدهارات للخلافة الإسلامية، الأموية، والعباسية، والفاطمية، وفتوحات هذه الخلافات، وثراء أغنيائها، وحركة تجارتها الداخلية والخارجية، والتطور العلمي النظري، والعملی، في ظل هذه الخلافات، لكننا تجاهلنا مثالب هذه الخلافات، وصور قهرها للشعوب، ولأبناء هذه الشعوب، ومحن الفقهاء والعلماء والكتاب والوزراء، في ظل خلافات القهر، وسلبها لحق هذه الشعوب المعسمة في تقرير مصيرها.

تجاهلنا هذا الوجه الآخر لأنظمة خلافات القهر .

وغایتنا من هذا الكتاب، أن نستل من كتب المؤرخين المسلمين، القدامى منهم والمحدثين، ومن تحليلات هؤلاء المؤرخين، صور هذا الوجه الآخر لخلافات القهر، الوجه القبيح، ونضعها بين أيدي القارئ عامة، والداعين إلى عودة النظام الخلافي خاصة، في العالم العربي، والعالم الإسلامي، وأحسبهم سيكتشفون أن نظام الخلافة لا ينبغي للمسلمين أن يعودوا إليه مرة أخرى، فهو نظام فرضته العصور الوسطى، وكان طبيعيا أن يوجد في تلك العصور .

في العصور الوسطى، كان وجه الأرض كله، في قارات العالم الثلاثة، المعروفة في تلك العصور، يحكم بأسر حاكمة، تقدم لحكم الشعوب حكاما يحملون اللقب: الملك، والسلطان، والامبراطور .

وقدم العالم الإسلامي الوليد للحكم أمرا حاكمة ، يحمل بنوها المختارون للحكم، لقب خليفة.

وكان المقصود بهذا اللقب في عصر الخلفاء الراشدين أن الحاكم خليفة، لأنه يخلف من سبقه، إلى أن اجترأ الخليفة العباسي أبو جعفر

المنصور فجعل الخليفة، خليفة لله سبحانه في أرضه، وظل الله الممسود على الأرض. ولعله وجد من الفقهاء ورجال الحاشية، من يفسر له آية الاستخلاف لأدم، بأنها تعنى أن الخليفة هو خليفة الله، الذى اختاره الله، ولم يختره العباد، والآية لم تعن أكثر من أن الجنس البشرى بأمره (من أبناء آدم) قد استخلفه الله فى الأرض، لتعمير الأرض.

ولم يكن ممكنا، فى غيبة تجارب أخرى لأنظمة الحكم السائدة، فى عصور العالم القديم، والعالم الوسيط، أن يوجد تصور آخر، غير تصور نظام الخلافة، لحكم المسلمين، تصور كان الخليفة الحاكم فيه فردا، يحكم طوال عمره، ويختاره صفوة أهل المدينة الحاكمة، ليكون حاكما خليفة لكل المسلمين، بصرف النظر عن كونه من آل البيت (على بن أبى طالب) أو من غير آل البيت (أبو بكر، وعمر، وعثمان).

ثم فرض منطق العصر فى نظام الحكم، وفى مواجهة أسرار عالمية حاكمة، يحمل حكامها لقب: امبراطور، وكبرى، وملك، فرض أسرا إسلامية حاكمة من آل البيت أو من غير آل البيت، وفرض منطق العصر نفسه، تلك الصراعات السياسية الدامية، فى تاريخ المسلمين بين الأسرة المسلمة الحاكمة، وأمراء أخرى كبرى، قبلية بالضرورة تسعى إلى الحكم بدعوى عربية، أو فارسية، أو تركية، أو بربرية، وترفع شعارات الإنقاذ للدين، تماما مثلما كان يحدث فى بلاد فارس والروم

كان ذلك هو منطق المصور الوسطى، وواقعها، فى أنظمة الحكم. وتحت هذا المنطق، ومع ذلك الواقع، اندرجت الخلافة الإسلامية، بعد ثلاثة عقود فقط، من عصر النبوة، ولم يكن ممكنا فى تلك العصور سوى هذا التصور لنظام الحكم الإسلامى، الذى مد أجنحته على أراضى وشعوب بلاد مفتوحة، انهارت بفتحها امبراطوريتا: الفرس، والروم، وكانت هاتان الامبراطوريتان هما قوتا التوازن الدولى، فى تلك العصور. وإثر هذه الفتوحات بقليل، وبقوة أسرتين حاكمتين مسلمتين، صار نظام الحكم الجديد مثل نظام الحكم القديم، القارسى، والرومانى، فلم يتغير فى البلاد المفتوحة شيء، سوى أن أهلها صاروا مسلمين بعد أن كانوا غير مسلمين، وأن نظام الحكم العباسى، أو البيزنطى، صار هو نظام الحكم الخلائق.

ولقد قدمت العصور الحديثة، للجنس البشرى، أنظمة ديمقراطية للحكم والإدارة، أثمرتها التفاعلات الحضارية السابقة، عبر العصور، وأثمرتها التفاعلات الدولية فى العصر الحديث، والثورات الكبرى الحديثة، وعلى أساس من حق الشعوب فى تقرير مصيرها، وحق الشعوب فى الاستقلال بهذا المصير، وحق الشعوب فى اختيار حاكميها من بين من يرشحون أنفسهم للحكم، أو ترشحهم القوى الاجتماعية والتيارات السياسية، وبالتصويت العام، الذى يستوى فيه صفة الشعب، وعامة الناس.

ولا مفر لمسلمى اليوم من الأخذ بحقوق الإنسان فى العصر الحديث، وهى حقوق من مقاصد الدين الإسلامى، فلم يفرض هذا الدين نظاما وحيدا للحكم. ولا تصورا وحيدا للشورى.

فمن المستحيل أن نزرع طرائق العصور الوسطى، فى الحكم، فى عصرنا الحديث. ومن المستحيل أن نعيد إلى عالمنا أوجهها قبيحة للحكم، أوجه الحكم الاستبدادى الشمولى بنزواته الامبراطورية، وسعيه للتوسع دائما، باسم تأمين الحدود، أو باسم الدعوة للدين، فالحدود لا نهاية لها عندئذ، والدعوة للدين، لا تكون بالتوسع، وإنما فقط، بالدعوة للدين بالتى هى أحسن، بخطاب العقل للعقول.

إن منطق العصر، يفرض تدلول الحاكمين للحكم وتجديد المحكومين للحاكمين، ويفرض تجدد أهل الشورى، كل بضع سنين، تحقيقا للمعدل فى الحكم، ودرا للفساد فى الأرض، ودفعاً لشهوات الحاكمين، وأتباع الحاكمين، فى السيطرة على رقاب العباد، وسلب أموال العباد، ويفرض مراقبة تصرفات الحاكمين والأتباع، ومحاسبة الحاكمين والأتباع، فالدولة هى كل الشعب، وليست الدولة هى الحكومة والحاكمين.

'ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض'، وذلك هو درس القرآن الكريم، وبالله التوفيق.

القاهرة فى : أكتوبر 1998 .

سليمان فياض

## خلفاء القهر

### 1- الخلفاء الأمويون:

م	اسم الخليفة	سنوات حكمه	مدة حكمه
1	معاوية بن أبي سفيان	660-680م	عشرون سنة
2	يزيد بن معاوية (الأول)	680-683م	ثلاث سنوات
3	معاوية الثاني	683-683م	أربعون يوما
4	مروان بن الحكم	684-685م	سنة واحدة
5	عبد الملك بن مروان	685-705م	عشرين سنة
6	الوليد بن عبد الملك	705-715م	عشر سنوات
7	سليمان بن عبد الملك	715-717م	سنتين
8	عمر بن عبد العزيز	717-720م	سنتان وسبعة شهور
9	يزيد بن عبد الملك	720-724م	أربع سنوات
10	هشام بن عبد الملك	724-743م	تسع عشرة سنة
11	الوليد بن يزيد بن عبد الملك	743-744م	سنة وشهران
12	يزيد بن الوليد	744-744م	خمسة أشهر

نسبه	سبب وفاته
عربي الأب والأم	مرض ومات على فراشه
عربي الأب والأم	مات على فراشه
عربي الأب والأم	كان مريضا ومات على فراشه
عربي الأب والأم	قتلته زوجته
عربي الأب والأم	مات على فراشه
عربي الأب والأم	مات على فراشه
عربي الأب والأم	مات على فراشه
عربي الأب والأم	يشاع أنه مات مسموما من أقربائه
عربي الأب والأم	حزنا على جارية أحبها
عربي الأب والأم	مات على فراشه
عربي الأب والأم	أغضب أكبر أهله، فجمعوا عليه بالسيوف وقتلوه في بيته
عربي الأب والأم	مات على فراشه

م	اسم الخليفة	سنوات حكمه	مدة حكمه
13	إبراهيم بن الوليد	744-744م	شهران
14	مروان بن الحكم	744-749م	خمس سنوات

## 2- الخلفاء العباسيون:

1	أبو المباس السفاح	750-754م	أربع سنوات وتمسعة أشهر
2	أبو جعفر المنصور	754-775م	عشرون سنة
3	المهدي	775-785م	عشر سنوات
4	الهادي	785-786م	سنة وأثنان وعشرون يوماً
5	هارون الرشيد	786-809م	ثلاث عشرة سنة
6	الأمين	809-813م	أربع سنوات ، وثمانية أشهر
7	المأمون	813-833م	عشرون سنة
8	المعتصم	833-842م	تسع سنوات
9	الواثق	842-847م	خمس سنوات
10	المعتزل	847-861م	أربع عشرة سنة
11	المنتصر	861-862م	سنة واحدة

نفسه	سبب وفاته
عربي الأب والأم	كان ضعيفا، فقلعه مروان، وقتله
عربي الأب والأم	آخر الخلفاء الأمويين وقتله العباسيون.

عربي الأب والأم	مات مريضا بالجذري
عربي الأب وأمه بربرية	مرض في رحلة ومات
عربي الأب، وأمه يمنية	مات مسموما ، بسم وضعته له جارية في طعامه
عربي الأب، أمه جارية فارسية	قتلته أمه بدم من وضع له السم
عربي الأب ، أمه جارية فارسية	مرض ومات
هاشمي الأب والأم	قتل على يد الجيش الخراساني لأخيه المأمون
عربي الأب، وأمه جارية فارسية	أصيب بالحمى في إحدى الغزوات
عربي الأب، وأمه جارية	مرض ومات
عربي الأب، وأمه جارية	مرض ومات
عربي الأب، وأمه جارية تركية	تآمر ابنه المنتصر عليه، مع الترك وقتله، للقائد التركي باغر بالسيف
عربي الأب، أمه جارية تركية	قتله للجد الأتراك

م	اسم الخليفة	سنوات حكمه	مدة حكمه
12	المستعين	866-862	أربع سنوات
13	المعتز	866-869م	ثلاث سنوات
14	المهتدي	869-870م	سنة واحدة
15	المعتمد	870-892م	سنتان وعشرون سنة
16	المعتضد	892-902م	عشر سنوات
17	المكتفي	902-908م	ست سنوات
18	المقتدر	908-932م	أربع سنوات
19	القاهر	932-934م	سنتان
20	الراضي	934-940م	ست سنوات
21	المتقي	940-944م	أربع سنوات
22	المستكفي	944-946م	سنتان

تلى هؤلاء الخلفاء خلفاء بالاسم فقط ، ليس لهم من السلطة شيء ، ولذلك دامت خلافتهم طويلا ، وماتوا على فراشهم ، وتركوا الصراخ على الملك لغيرهم من بنى بويه ، والسلاجقة .



نسبه	سبب وفاته
عربي الأب، أمه جارية	نفاه الجنود الترك، وقتلوه
عربي الأب، وأمّه جارية	ثار ضده الأتراك، وحبسوه فمات جوعاً وعطشاً
عربي الأب، وأمّه جارية	ثار عليه الجنود الترك، وقتلوه
عربي الأب، وأمّه جارية	مات مريضاً بعد أن خلعه أخوه الموفق، ويقال إنه مات بيد أخيه
عربي الأب، وأمّه جارية	مات على فراشه
عربي الأب، وأمّه جارية تركية	مات على فراشه
عربي الأب، وأمّه جارية رومية	خلعه قواده وقتلوه
عربي الأب، وأمّه جارية	خلعه جنوده وسجنوه ثلاثين سنة حتى مات
عربي الأب، وأمّه جارية	مات على فراشه
عربي الأب، وأمّه جارية	قبض عليه القائد التركي توزون، وسمل عينيه وقتله
عربي الأب، وأمّه جارية رومية	خلعه معز الدين البويهي وقبض عليه



مدخل

لماذا اختلف المسلمون؟

يختلف الناس ، كل الناس ، مسلمين وغير مسلمين في آرائهم ، في كل العصور ، اختلافا قد يصل إلى التكفير ، وحمل السلاح ، واستباحة الدم والأعراض . وأسباب الاختلاف ترجع إلى الاختلاف بين الناس ، في العقائد والمصالح ، إلى وجهات النظر في الأفكار والموضوعات الغامضة ، والجهل بوجهات نظر الآخرين ، بل بموضوع النزاع ، ووجهات النظر فيه ، وقد قال سقراط لتلاميذه : " لو عرف موضع النزاع ، لبطل كل نزاع " . ويختلف الناس لاختلاف الرغبات والشهوات والأمزجة بينهم ، والرغبة كما يقول اسبينوزا هي التي تربي الأتشاء ملحة أو قبيحة لا بصيرتنا .

وتاريخ الفكر البشري كما يقول وليم جيمس ، هو تاريخ التصادم بين الأمزجة البشرية ، في ميادين الأدب والفن ، والحكمة والأديان . ويختلف الناس لاختلافهم في الاتجاه والمنهج ، مثل اختلاف الفقهاء ، وعلماء الكلام ، فهؤلاء يقولون بالعقل ، وأولئك يقولون بالنقل . ويختلف الناس ، لتقليدهم ، للمباشرين ، ومحاكاتهم ، دون تحكيم للعقل من المقلدين . والتقليد يسيطر على القلوب . وأفكار المباشرين تسيطر على العقول . فيكون الجدل غير المنتج ، بين المصنفين بقيود الأسلاف من حيث لا يشعرون . ومن التقليد ينشأ التعصب . فتسمية الآراء التي يقلدها الشخص تدفعه إلى التعصب لها ، وكلما كان التعصب شديدا ، كان الاختلاف شديدا . والتعصب يؤدي دائما إلى التكفير داخل الأمة الواحدة ، واستباحة البعض لدماء البعض ، والحرب بين الأمم ، ونادرا ما يكون سبب التعصب هو قوة الإيمان ، فالمتعصب لا يفتح قلبه وفكره إلا على جانب واحد ، هو آراء المباشرين ، أو بعض المباشرين .

ويختلف الناس بسبب تقلب المدارك والعقول ، فمن المدارك ما ينفذ إلى الحقيقة ، ومنها ما لا يحيط إلا بجزء منها ، ويقف عند هذا الجزء ، ومنها ما يسيطر عليه الوهم ، ومنها ما يذهب به الخيال في متاهات فكرية

مختلفة ، تحت سلطان أفكار موروثية . والعلماء أنفسهم مثل العلماء ، قد تسيطر عليهم الأوهام ، وتغشى على بصائرهم ، وكيف يتفق فكر الفقيه السلفي ، مع فكر العلم ذي العقل المنطقي الرياضي ؟ وكيف يتفق العقل الشاعرى المتحرر ، مع عقل الفقيه المتعبد بنصوص فقهاء سابقين ؟  
ويختلف الناس جميعا ، لاختلاف مناهجهم السياسية ، وأكثرهم يرغبون فى السلطان ، وتقودهم هذه الرغبة الخاصة إلى آراء تتعلق بالحكم ، والاندفاع فى تأكيد هذه الآراء ، مدعين أنها الحق والصواب .  
ويختلف الناس جميعا ، لانتماءاتهم العصبية القومية ، أو العنصرية ، ويندفعون بها أيضا إلى طلب الرياسة والسلطان .

وأخطر أسباب الخلاف بين الناس اختلاف العلماء المنافقين ، علماء اللسان ، خير حكيمى القلب ، الذين يصير لهم أنصار يندفعون لتأييدهم اندفاعا ، ويمثلون آراءهم مجاهرة ، ويدعون أنفسهم بأن ما يدعون إليه هو الحق ، ولقد روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم فيما روى عنه : "أخوف ما أخاف على أمتى رجل منافق طليم للسلطان ، غير حكيم القلب ، يغيرهم بفصاحته وبيانه ، ويضلهم بجهله".  
فليست ذلاقة اللسان ، ذليلا على العلم ، بل لعلماء ، غالبا ، ذليلا على الجهل واللفاق ، وانعدام الحكمة فى القلب ، بانعدام الحب للناس ، والرحمة بالناس . ومثله ذلك المتعالم ، نصف الفتيخ ، الذى يركب صهوة منبر ، ويقول أنا وراعه حتى أفرق بينه وبين ربه ، وأنا وراعه حتى أفرق بينه وبين زوجته ، ولعله الآن يقول مرة أخرى مثلما قال قبل شهور : "أنل وراعه حتى القبر".

جبر أربعة عشر قرنا من الزمان ، لاختلاف المسلمون فى مذاهب الاعتقاد والسياسة ، والفقه ، ولم يختلفوا فى لب الدين وجوهره .  
لم يختلف المسلمون فى وحدانية الله ، والشهادتين ، ولم يختلفوا فى أن القرآن الكريم نزل من عند الله تعالى .  
ولم يختلفوا فى أصول الفرائض ، كالصلوات الخمس ، والزكاة والحج ، والصوم ، ولا فى طرق أداء هذه الفرائض ، ولا فى المحرمات ، ولا فى القواعد العامة للميراث .

ولكن المسلمين اختلفوا ، واختلفهم شر كله ، حول بعض العقائد ، وحول السياسة ، فكلموا فرقا متناحرة بالرأى والسياف ، وبالتكفير وتحريم التكفير على من سواهم .

اختلفوا ، وأخذ خلافهم طريقين : طريق علمى لم يفرق الأمة وطريق علمى فرق الأمة ، وأذهب وحققها بين أفرادها ، وأسرها ، فى السياسة ، وشئون الحكم ، وبعض العقائد ، ويرجع الإمام الشافعى الجليل محمد أبو زهرة هذا الخلاف فى كتابه القيم "تاريخ المذاهب الإسلامية" إلى العصبية العربية ، وهى جوهر الخلاف بين المسلمين فى تاريخهم الإسلامى ، مع أن الإسلام قد حارب العصبية بنصوص القرآن والسنة ، فعادت العصبية الجاهلية ، إلى حياة العرب الذين أسلموا بين العلويين والأمويين ، والهاشميين والرعيين من الخوارج . وأدت هذه العصبية إلى التنازع على الخلافة منذ الخلاف الأول بين المهاجرين والأنصار . ومن أسباب الخلاف بين المسلمين ، الخلاف بين العرب المسلمين ، وأهل الديانات القديمة السابقة ، الذين دخلوا فى الإسلام ، وصاروا يفكرون فيه ، وفى الحقائق الإسلامية ، على ضوء اعتقاداتهم القديمة . وبينهم كان مخلصون فى إسلامهم ، ومناقون فى هذا الإسلام يظهرون غير ما يظنون ، ويزرعون أفكارهم حول الجبر والاختيار ، وصفات الله : هل هى ذاته أو غير ذاته ، والقرآن هل هو مخلوق أو غير مخلوق ، فكانت طوائف الشيعة ، والفرق الأخرى .

ومن أسباب الخلاف بين المسلمين ، تصدى العلماء للبحث فى مسائل غامضة بفروض نظرية ، تأثروا فيها بمناهج الفلاسفة ، مثل مسألة إثبات صفات الله تعالى ونفيها ، وقدره العبد بجوار كبره الرب .

ومن أسباب الخلاف ، لانتشار القصاص فى المساجد ، منذ العهد الأموى ، وانزلاقهم إلى إدخال الإسرائيليات فى كتب التفسير التى تدرس إلى اليوم بالأزهر الشريف ، وكتب التاريخ الإسلامى ، وقد جهد الخلفاء والأمراء ودعاة الفرق فى الاستعانة بهؤلاء القصاص "الوعاظ" لمشايقتهم بين العامة ، ومناصرتهم للوصول إلى الحكم ، أو لاستمرار بقائهم فيه ، وعندئذ تسوء العقبى ، ويجيش للقصاصون ، والسنة القصاصون ، ويمتشق مسلمون السلاح لمحاربة المسلمين بالإرهاب ، أو بالحرب ، بالاعتقال السياسى ، أو بالجيش .

ومن أسباب الخلاف بين المسلمين ورود آيات متشابهات فى القرآن الكريم ، إلى جانب الآيات المحكمات، والآيات المحكمات صريحة وقاطعة ولا تحتاج إلى تأويل ، والآيات المتشابهات تحتاج إلى التسليم بها دون تأويل، لكن بعض العلماء يتصدون إلى تأويلها، وعندئذ يحدث الاختلاف فى التأويل لاختلافا مبينا ، فتحدث للفرق الإسلامية فى الإسلام، وينقسم العامة بين أهل هذه الفرق.

ومن أسباب الخلاف بين المسلمين ، اختلاف الفقهاء واختلافهم رحمة وشرف فى آن واحد، فى استنباط الأحكام الفقهية ، فى أمور لم يرد بها نص فى قرآن كريم ، أو سنة شريفة ، والنصوص تنتهى، والحوادث لا تنتهى، وتحتاج إلى استنباط أحكام وفتاوى فقهية لكل حادثة من الحوادث. وقد اختلف الفقهاء فى هذا الاستنباط بالاجتهاد ، واختلف للحكام فى الأخذ والعمل بهذا الاجتهاد، فى الحكم والفتوى من عصر إلى عصر، ومن بلد إلى بلد.

وكان الاختلاف رحمة ، فبوسع كل أن يختار فتوى هذا أو ذاك ، ليعمل بها.

وكان الاختلاف شرا فى الوقت نفسه، فبوسع كل أن يختار فتوى هذا أو ذاك، ليحكم بكفر خصم، ويهاجم حريته فى التفكير ، ويقطع رقبتة ، ويستحل دمه وعرضه وماله.

والفقه قانون ، وليس جزءا من الشريعة ، لأنه اجتهاد والمجتهدون مختلفون ، وكيف يحمل القرآن والسنة هذا الاختلاف ؟ وكيف تصبح هذه الثروة الفقهية الخلافة ، التى تعد بالآلاف (مثلما تعد القوانين فى مصر الآن) جزءا من شريعة الإسلام؟

ذلك كان الخلاف العلمى، وتلك كانت آثاره فى اختلاف المسلمين، فكيف كان الخلاف العلمى بين المسلمين فى تاريخ المسلمين؟

بدأ الخلاف والاختلاف في التاريخ الإسلامي ، جزئيا ، ونظريا وعمليا ، بين صحابة الرسول (صلى الله عليه وسلم) بعد وفاته . ثم انتقل منهم ، ومنهم ، إلى العلماء والفقهاء ، من التابعين ، وتابعي التابعين ، وتابعي تابعي التابعين ، ثم امتد الاختلاف ليسرى بين عامة المسلمين ، في كل بلاد الإسلام ، وفي كل العصور الإسلامية التي حكم فيها ، خلفاء نبوة ، وخلفاء ملك يورث ، وسلاطين ، وأمراء ، وتحول ما كان جزئيا من الخلاف والاختلاف ، إلى خلافات كلية ، وما كان صغيرا ومحدودا ، إلى خلافات كبيرة ، قامت عليها ، وبسببها دول ، وسقطت دول ، وحمل فيها العلاج ، وسالت دماء . ومعظم النار من مستصغر الشرر .

بئر عهد رسول الإسلام ، وقد ضاب النبي الرسول ، وطوال عهد الخلفاء ، حدث الخلاف حول الخلافة للرسول في حكم المسلمين ، والخلافة هي الإمامة الكبرى الواجبة الطاعة ، وعلى الكل أن يسير وراءها ، رعاية للمصالح العامة للناس ، وحفظا للدين ، وحماية للحرية ، في العقيدة ، وفي النفس ، وفي المال ، وفي الأعراض ، وفي دائرة التشريعية الإسلامية ، ولها دعامتان لا ثالث لهما هما : القرآن والعنة ، فما عداهما فقه واجتهاد ، قد يتحول هذا الفقه والاجتهاد إلى قانون للحاكم والمحكوم ، إذا أجاز له الحاكم الخليفة ومستشاروه ، وفقا لمبدأ المصالح المرسلة .

وكان أول خلاف بعد وفاة الرسول ، حول من يكون أول خليفة للرسول ، في حكم المسلمين في الجزيرة العربية ؟ ومن يكون ؟ من المهاجرين القرشيين : الهاشميين أو الأمويين ، أم من الأنصار المسلمين من الأوس أو الخزرج . وحلت مشكلة الخلاف الأول باختصار أبي بكر الصديق ، الصحابي الجليل العظيم الإسلام ، حين تنازل الأنصار والقرشيون معا عن المطالبة بالخلافة ، لقوة إيمانهم الأول ، وتفتهم بأبي بكر الصديق .



وحدثت مشكلة الخلافة مرة ثانية ، حين اختار أبو بكر عمر بن الخطاب من بعده ، ليكون ثلثي الخلفاء المسلمين ، وكان من بنى مخزوم ، الموالين لبنى أمية ، ولم يكن هاشميا ولا أمويا ، ولا من الأنصار .

وبدا أن مشكلة الخلافة مستحل للمرة الثالثة ، بعد عمر ، حين اختار عمر ، وهو يحضر ، وينفق دماء من طعنة خنجر أبي لؤلؤة الفارسي ، اختار مجلسا من ستة ، ليختاروا للمسلمين خليفة من بينهم المسلمين . وكان أعضاء هذا المجلس قرشيين : ثلاثة هاشميون ، وثلاثة أمويون ، وليس بينهم واحد من الأنصار ، لا من الأوس ، ولا من الخزرج . وحين سئل عمر : ماذا لو حدث أن الهاشميين اختاروا خليفة منهم ، وأن الأمويين اختاروا خليفة منهم ، وتساوت أصوات الاختيار لهؤلاء وهؤلاء ، قال لهم عمر ما معناه : إن الصوت المرجح لأحد الطرفين هو صوت عبد الرحمن بن عوف . وعبد الرحمن بن عوف كان قرشيا من بنى أمية ، وسئل عمر : وماذا لو شق أحد الستة عصا الطاعة ، في مبايعة الخليفة المختار ، فقال لهم عمر : اقتلوه .

ولتجتمع المجلس ، وتم الاختيار في البداية لابن عوف ، لكنه أباهها لنفسه ، وكان تلجرا يوصار فيما بعد واسع الثراء ، فاختير عثمان للخلافة ، وبالإجماع ، وتم ما أراده عمر ، وحسم فيما بدا الخلاف المتوقع ، باختيار خليفة صحابي جليل ، ممن ، محب لذوى قرياء وذوى رحمه من الأمويين ، ولا لوم عليه ولا تثريب في هذا الحب . ولربما بقيت نار بعض الهاشميين من قريش تحت الرماد .

وفي عهد خلافة عثمان ، كان معظم مستشاريه ، وولاته على الأقاليم ، وصال الخراج على الدوليين المدنية التي أنشأها عمر ، من الأمويين ، وكان الأمويون مشهودا لهم بالمهارة في إدارة الحرب والمال والتنظيم ، قبل عهد الرسول في الجاهلية ، وفي عهد الرسول وأبى بكر وعمر في الإسلام في أرجاء الجزيرة العربية ، في الحجاز ، واليمن ، ونجد ، والبحرين ، وفي الأمصار المفتوحة .

وبسبب هذا الإيثار للرجح في الاختيار للأمويين ، حدث خلاف امتدت نيرانه إلى عامة المسلمين ، وربما كان يذكرها قرشيون هاشميون ، وبالتأكيد كان يذكرها قرشيون أمويون ، لتكون الخلافة بهذه الفتنة للأمويين ، مضحين بالخليفة عثمان ، كما تؤكد ذلك مسيرة الأحداث .

في عهد عثمان : ظهر الخلاف في قتن كموج البحر ، كما يقول الشيخ الإمام محمد أبو زهرة ، وكانت هذه القتن الخطوة الأولى للاستتراق بين المسلمين ، والخطوة الأولى لنشوء المذاهب السياسية حول الخلافة وغير الخلافة . وكانت لهذه القتن أسباب ثمرت خلافا حادا ، حول استمرار خلافة عثمان .

أول هذه الأسباب سماح عثمان لكبار المهاجرين والأنصار الأولين ، الأحياء بعد عهد الرسول ، بالذهاب إلى الأمصار ، فانسبوا متغلغلين في الأقاليم الإسلامية ، أنصارا وهاشميين وأمويين ، وكان الخليفة عمر قد منعهم من مغادرة المدينة ، إلا لولاية يتولونها ، أو لقيادة جيش يقودونه ، أو لمحرب يفوضونها كجنود ، فقد كان عمر يريد الانتفاع بهم كصحابة مستشارين ، ويخشى أن يقتل الناس بهم في الأمصار ، وأن ينتقوا ، وهم في الأقاليم ، بعيدا عنه ، لولاة ، بما لهم من سابقة للصحبة ، وحق الرأي ، والاجتهاد ، والرواية للحديث ، وتفسير آيات القرآن ببيان أسباب نزوله ، ولذلك أبقاهم عمر عنده ، وحدد إقامتهم في المدينة .

فتح إذن عثمان بسماحه للصحابة الأحياء بالعودة إلى الأمصار ، وفي غير مهمة للدولة ، أبواب الفرص لنقد ولادة الأقاليم ، وللقاد الخليفة نفسه ، مثلما فعل "أبو ذر الغفاري" في الشام ، وكان وليها منذ عهد عمر هو "معاوية بن أبي سفيان" فقد كان أبو ذر يقول للناس في الشام : "والله لقد حدثت أحمال ما أحرفها ، والله ما هي في كتاب الله ولا سنة نبيه ، والله إلى لأرى حقا يطقا ، وباطلا يحيا ، وصادقا مكذبا ، وأثرة بغير تقى ، ومالا مستأثرا به" . إلى آخر ما كان يقوله للناس . وشكا "حبيب الفهري" لمعاوية قائلا : "إن أبا ذر لمفسد عليكم الشام ، فتدارك أهله . إن كان لك فيه (أى في الشام) حاجة" . فشكا معاوية أبا ذر إلى عثمان ، فأعاد عثمان إلى المدينة ، ثم نفاه إلى الربطة ، وكان لنفيه أثر بلا شك في نفوس الصحابة المقيمين بالمدينة ، والهاشميين ، فأبو ذر هذا هو الذي قال فيه الرسول - عليه - "أمة وحده ، يعيش وحده ، ويموت وحده ، ويبعث أمة وحده" . وصدق رسول الله فيما قال عنه ، فقد كان أبو ذر تقيا وصادقا وزاهدا .

لكن الشام ، وغير الشام من أمصار الإسلام المفتوحة ، بقي فيها آخرون من أمثال أبي ذر ، ومن استمعوا إلى أبي ذر ، وبين السامعين كان أقوام حديثو عهد بالكفر ، لم تقرب قلوبهم بعد حب الإسلام ، وفيهم من

يدعون إلى الفتنة ، ويجنون سماعين لهم ، وفيهم من ينتمون إلى الهاشميين ، وإلى الأنصار ، وإلى قبائل غير قرشية ، وإلى قوميات البلاد المفتوحة وعصبيتها .

وثالثى هذه الأسباب ، أن بعض أقارب الخليفة عثمان من الولاة على الأمصار ، ومن المستشارين له ، ليسوا من أهل الثقة ، وإن كانوا من أهل الخبرة . ومع ذلك كان عثمان يستشيرهم ، ويكثر من استشارتهم ، ولا يكثر من استشارة طلبة الصحابة المتفهمين حقاً في الدين ، وجوهر الدين ، وروح الدين ، مثل : علي بن أبي طالب ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة ، وغيرهم ممن كانوا من الخاصة الذين يستشيرهم عمر ، وكان هؤلاء الأمويون ، من أقارب عثمان ، يحاولون ، من وراء ظهره ، وربما أمام عينيه ، أن يقبضوا على ناصية الأمور ، لصالح الأمويين بالطبع ، في المدى القريب والبعيد ، فراحوا يحرضون عثمان على عدم الالتفات إلى لوم اللاتمين ، ونقد الناقدين ، إلى أن أحاطت بالمدينة ، وبادره في المدينة ، وفود المتألبين عليه وعلى خلافته ، قادمين إليه من مصر ، والكوفة ، حاملي السلاح ، مطالبين بمطالب شتى يعتقدون أنها من حقوقهم كزعامة ، ومن دينهم كمسلمين .

وامتعان عثمان بعلى في صرف المصريين المسلمين خاصة ، فاستمعوا إلى رأيه ، وانصرفوا عن حصارهم لدار عثمان ، لكنهم بقوا في المدينة ، ربما منتظرين أن تجاب مطالبهم بتغيير ولايتهم ، وأخذ حقوقهم ، ورفع المظالم عنهم .

وانذاك عاد عثمان يطلب من على أن يكلم الناس بكلام يقتسمون به ، كي يعودوا إلى بلادهم ، ويشهد له عندهم بكلام يفرق به الناس ، فيسوف يحقق لهم مطالبهم . وتحدث على إلى الناظرين ، فرقوا لكلامه ، وبكى كثير منهم تأثراً بقوله ، وعادت سيوفهم إلى أعضادها ، وخمدت نوازع المسخط فيهم ، وراحوا يستعدون للرحيل عن المدينة ، لولا أن مروان بن الحكم الأموي ، مستشار عثمان ، دخل على عثمان بعد حديث على للناس ، ووعده لهم بلسان على ، وراح يحذرهم من الاستجابة للناظرين ، ومن إعلانه الإتيبة والتوبة على لسان على ، وقال له : " والله لإقامة على خطيئة يستغفر منها ، أجمل من توبة تخوف عليها ، وإنك إن شئت تقربت بالتوبة ، ولم تقر بالخطيئة ، وقد اجتمع إليك على الباب مثل الجبال من

الناس ، فقال له عثمان : "فلخرج إليهم ، فكلهم ، فلبى لأستحيى أن أكلهم". فخرج مروان إلى باب دار عثمان ، والناس يركب بعضهم بعضا من الزحام ، وراح يستقزهم ، ويتوعدهم ، قائلا فيما قال : "كانكم قد اجتمعتم لتهب ، وجئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا (هكذا !!) من أيدينا ، أخرجوا عنا ، والله لنن رمتونا ليمرن عليكم منا أمر لا يسركم ، ولا تحمدوا (عندئذ) غب (عاقبة) رأيكم . ارجعوا إلى منازلكم . فلبى والله ما نحن مغلوبين على ما في أيدينا (هكذا !!)". وهكذا أرادها مروان ملكا عضوضا لبني أمية ، لا خلافة تقوم على العدالة ، والشورى ، والطاعة من الرعية عن اقتناع بالعدالة .

وكانت للكرثة الإسلامية الشعبية الأولى ، ضد الخليفة عثمان ، وضد نظام الخلافة لأول مرة ، فقد هاجم الثائرون والافدون دار عثمان ، وكانت قلوبهم قد رقت لكلمات على ، فاستشهد عثمان وهو يقرأ القرآن في مصحف عثمان ، المصحف الوحيد الذي كان أصله في بيت حفصة ، والذي نسخت منه نسخ إلى الأمصار ، وأحرق ما سواها من مصاحف السوالة والصحابة في الأمصار ، فاستقرت من بعده قراءة القرآن ، وآيات القرآن ، كما جمعت في عهد أبي بكر من أوراق البردي ، ورقائق الجلود ، وألواح الخشب ، والمعظم . وعجز أهل المدينة عن حماية عثمان ، وكان بينهم هاشميون وأصبار ، ساططون بلا شك ، على ما قاله مروان للناس .

وثالث هذه الأسباب ، ما وجه إلى الخليفة عثمان من مسلمي الأمصار ، والصحابة بالأمصار ، من اتهام له بالمحاباة لعبد الله بن سعد ابن أبي السرح الأموي ، حين ولاء ولاية مصر ، بعد ولاية عمرو بن العاص فاتح مصر ، وكان عبد الله هذا قد أباح الرمول دمه ، لارتداده بعد إيمان ، فهرب منه ، ثم عاد مسلما ، وكان عبد الله يظلم في حكم أهل مصر ، ويسهم كيدا في تأليب أهل مصر على عثمان . ولقد اعترف عبد الله بهذا التحريض ، بعد استشهاده عثمان ، عندما قال : "والله إن كنت لألقى الراعي فأحرضه عليه". ولقد انتشرت بين المسلمين أقوال قوالة السوء عن ابن أبي السرح ، فقد آمن ، ثم كفر ، ثم كذب على رسول الله ، ولم يكن في سياسته كوال أموي على مصر ، رحيما بأهل مصر ، مثلما كان معاوية الأموي رحيما بأهل الشام ، ومثلما كان عمرو بن العاص رحيما بأهل مصر ، بل كان غليظا قاسيا على المصريين ، وجريئا في مخالفة عثمان ،

لا يستمع منه إلى نصيح، ولا يخاف من تهديد أو وعيد. بل لقد تجرأ  
فضرب في مصر، من قوته من قبل عثمان بعد أن شكوه إلى عثمان،  
حاملين له نصيح عثمان، وتهديده له. عندئذ ينس الناس في مصر،  
وأكثرهم من العرب، من العدل، وهو من أركان الخلافة الثلاث، وفتح  
اليأس أبواب الشر، والقتن، والقتل، والقتال، ومهوء الرأي في الخلافة  
والخلفاء، ولقدزهم بعواقب استئثار الخلافة إلى عصبية قبطية أو قومية،  
فالدين قد علا بنصونه في القرآن والعنة فوق العصبية والقوميات .  
وهل كان يكفي الإنذار ، أو تغنى النذر، في إيقاف الطوفان؟

ورابع هذه الأسباب : لين الخليفة عثمان مع ولاته ، ولم يكن  
بعضهم عادلا ، في مصر ، والكوفة ، فينس الناس من عدله هو الخليفة .  
ولم يكن عثمان بسبب لينة حازما مع ولاته ، وخصوصا في سوء معاملتهم  
للرعية بالعدل ، ورعاية المصالح ، ولم يرفع بعد عمر شعاع عمر ، حين  
قال : "خير لى أن أعزل كل يوم واليا ، على أن أبقي واليا ظالما ساعة من  
الزمان".

ومن لين عثمان أنه لم يكن حازما منذ البداية مع الوافدين من  
الأمصار ثائرين عليه ، ومحاصرين للمدينة ولداره ، حتى إنهم حصوه  
بالحصباء ، وهو يخطب فيهم على منبر المسجد النبوى ، فالفئة ليس لها  
علاج من الحاكم حين تحدث ، سوى الحزم ، ثم بعد ذلك يرد الحق إلى  
نصابه ، ويعزل الولاة الظالمين ، ولو فعل ذلك، منذ البداية ، لنجا، ونجت  
الخلافة ، واستتب أمن المسلمين وحسم الخلاف ، وكسرت شوكة العصبية  
القبيلية الأموية ، وكان عظماء الصحابة من حوله في ثمانمائة سيف، بقية  
من مقاتلين عظام ، على استعداد لنصرته، ولكنه كان يتبطهم ، ويمنعهم  
من نصرته ، منعاً للقتل والقتال بين المسلمين . كان رحيم القلب ، فكان  
أول فداء، وكان مقتله بداية لبلاء لخلاف المسلمين ، وفتح الباب لفئة ، بل  
لفتن، أخذت تموج كموج البحر .

وخامس الأسباب : وجود طوائف من النافقين على الإسلام،  
الذين يعيشون في ظله، ويظهرون نفاق الغيرة عليه، ويضمرون نفاق الكفر  
به ، فقد راحوا يشيعون أقوال السوء عن ذى النورين عثمان، ويذكرون  
بالخير فارس الإسلام : على بن أبى طالب، وينشرون روح الفتنة بين  
العامة في الأمصار ، متخذين من مظالم بعض الولاة ذريعة لدعايتهم ،

وعلى رأس هؤلاء كان عبد الله بن سبا اليهودى ، وكان يمتنبا من صنعاء ، وأسلم فى زمان عثمان ، وراح يقتل مرتعلا من بلاد الحجاز إلى البصرة ، إلى الشام ، ناشرا دعليته ضد عثمان ، وذلكرا بالخير عليا بن أبى طالب ، ليوقع بين الهاشميين والأمويين ، ولم تنجح دعليته فى هذه البلاد ، فابعد من الشام إلى مصر . وفى مصر راح يقول للناس : "بئى لتعجب ممن يقول برجمة عيسى لحكم الدنيا ، ومحمد لولى بأن يرجع لحكم الدنيا" ، ويقول للناس : "كان ألف نبى ولكل نبى وصى ، وعلى وصى محمد ، ومحمد خاتم النبیین ، وعلى خاتم الأوصياء ، وعثمان أخذها (أى الخلافة) بغير حق ، فرصى محمد موجود وحى" . ولعله قد راح يؤلف أحاديث فى هذا السياق ، وينسبها إلى صحابة رحلوا عن الدنيا بالموت أو بالشهادة .

ومبار لابن سبا دعاة ، يظهرون فى العلن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ويدعون فى العسر لأراء ابن سبا ، فى عيوب عثمان ، وولاء عثمان ، وفضائل على فارس الإسلام ، وباب مدينة العلم ، فكانوا تنظيما سرىا يتحرك بين الناس بوجهين ، ويحيا بوجهين ، وبداية لمؤامرة كبرى ، ليس فقط ضد عثمان ، ولشق وحدة المسلمين ، وإنما أيضا لبحث الأفكار المنحرفة المفردة للمسلمين . ومن هنا بدأت بذور المذهب الشيعى ، التى راحت تثبت وتتكاثر . كما بدأت بذور مذاهب الخوارج فى الظهور ، بين قبائل الرعيين (بنى ربيعة) .

وحين ولى على بن أبى طالب الخلافة ، بعد عثمان ، وهو قرشى هاشمى ، كان بخلافته بداية للمعتدين فى الإسلام ، الذين سيظهرون ممثلين لأهل السنة ، أو لجماعة المسلمين ، ولكن للشيعية والخوارج كانوا قد ظهروا فى الصلاة ، وهما مذهبان متعارضتان ، وكان الأمويون يريدون الخلافة من على ، ويتمددون طيه فى الشام وفى مصر ، وفى الجزيرة ، فراحوا يحاربون عليا والهاشميين ومن يؤيدهما ، لينفردوا بالخلافة كأمويين ، ويحولونها ملكا عضويا ، وساعدهم فى الخلاص من على ، وجود الشيعية ، ووجود الخوارج ، ولتتقاضهم على "على بن أبى طالب" .

ولهذا الصراع على الخلافة بين الأمويين والهاشميين ، وفى الساحة الإسلامية ، آنذاك ، خوارج قبليون - وشيعيون - بلزغون ، قصة أخرى عن الصراع على الخلافة بين الأمويين والهاشميين .

الفصل الأول

# خلافت القمر الإسلامية





كانت من أسباب للفرقة بين المسلمين قضية الخلافة ، واختيار الخليفة ، وممن يكون من العرب ، أم غير العرب ، ومن قريش أم من غير قريش ، فالخلاف والاختلاف بين المسلمين كانت له أسبابه العملية السياسية ، وبالتالي تنظيراته للفقهية من الفقهاء ، والفرقية من دعاة الفرق الإسلامية المنشقين.

بالشورى ، أمر القرآن الكريم ، وسنة رسول الإسلام ، وأولى المسائل بالشورى مسألة اختيار حاكم للمسلمين ، فى دولة موحدة بالإسلام ، أو فى دول ودويلات ، تعتنق دين الإسلام.

فى البدء ، انتخب أبو بكر من الصحابة بالمدينة ، بعد اختلاف يسير بين المهاجرين والأنصار ، وفى المهاجرين هاشميون ، وأمويون ، وفى الأنصار ، الأوس والخزرج. وأوصى أبو بكر بالخلافة من بعده لعمر بن الخطاب ، بعد أن استشار كبار الصحابة فى شأنه.

ووضع عمر مبدأ للشورى لارتاءه ، رشح فيه ستة ليتفقوا على اختيار خليفة من بينهم ، ووقع الاختيار والاتفاق على الصحابى الجليل عثمان ابن عفان ، وكان أموياء ، وجانب الاختيار والاتفاق الصحابى الإمام على بن أبى طالب الهاشمى .

وكان الاختيار اختيار صحابة ، وصفوة ، ثم تتلوه البيعة منهم ، ومن أهل المدينة ، ومنازل البلاد ، والمدن ، والأمصار ، عن طريق السوالة والعمال.

وحين قتل عثمان بن عفان ، بأيدي ثوار للكوفة ومصر ، اختار الصحابة بالمدينة "على بن أبى طالب" ليكون خليفة ، ولقد هذا الاختيار أهل مصر ، وأهل العراق ، ولم يتردد فى إعطاء البيعة له سوى بعض الصحابة من المهاجرين ، ترددوا ثم بايعوا ، وهرب البعض إلى الشام لاحقين بمعاقبة بالشام ، أو لاجئين إلى مكة ، وكان معظمهم من بنى أمية بالمدينة.

وتمت بيعة علي بالأغلبية من أهل المدينة : مهاجرون هاشميون ، وأنصار من الأوس والخزرج ، وثوار من العراق ومصر .

وهكذا بدا أن الأخذ بالشورى، بدءا بالبيعة للخصصة، يستكمل أساس الشورى باقتخاب أغلبية الصفوة للحكم، ثم بأهل نجد والحجاز ، وكان علي سفير الأمصار أن تبليغ بدورها ، من بليعه أهل المدينة ، فقد كانت المدينة في العالم الإسلام ، بمثابة أثينا في بلاد اليونان .

لكن عليا للصحابي الفارس التقى النقي، الوفي بالعهود، والعالم بالدين قرأنا وسنة، وبالدين كصالح مرملة لعامة المسلمين، والحريص على مال المسلمين حرص عمر عليه ، والمتشدد في الحق تشدد عمر فيه، والعدل في رد المظالم عدل عمر معها، سارع بعزل الولاة الذين ولاهم عثمان في العراق والشام ومصر، ولم ينتظر لانتظارا سياسيا ، إلى أن تستقر الأمور بعد استشهاد الخليفة عثمان ، ويهدأ هياج الأمويين والمناصريين للأمويين لندم للخليفة المارق.

ولقد نصحه بعض الصحابة بالانتظار إلى أن تستقر الأمور ، حتى يأتي حزمه في موضعه وحينه، لكنه سارع مع هذا العزل باسترداد الإقطاعات التي كان عثمان قد منحها لبعض بطانته، والمقربين إليه من أهل بيته الأمويين، وأعاد عطاءات المسلمين من بيت المال إلى ما كانت عليه في عهد عمر، وكان علي في حياته مستشاره وقاضيه ، ومفتيه.

عندئذ انفجر ضد علي مخطط لولاة علي الأمصار ، الذين أثروا في عهد عثمان، وعلى رأسهم معاوية بن أبي سفيان، وكان معاوية واليا على الشام منذ عهد عمر بن الخطاب . ولقد تمكن معاوية بثروة بلاد الشام، من تكوين حزب قوي ، يضم الأمويين وعرب الشام ، ومسلمي الشام ، وأعلن عدم الإذعان لأمر للخليفة علي، وراح ينشر لسواء التمرد والمعيان.

هو معاوية الذي لم يعلم إلا عند فتح المسلمين لمكة، وهو معاوية الذي بدأ بمطالبة علي بأن يأخذ أولا بثار عثمان ، ويتبع قتلته، ويقتلهم ، لكن عليا أصدر على أن يعلن معاوية لولا الطاعة له وإعطائه البيعة ، والامتثال لأمره ، ثم يتقدم إليه أولياء دم عثمان تلقيا يتبع معهم ما يوجبه الشرع ، فلا قصاص من غير دعوى ، ولا إقامة بيعة.

وعندئذ نشبت الحرب ، وكانت حرباً بين القبائل العربية المسلمة: الهاشميون وأنصارهم من جهة، والأمويون وأنصارهم من جهة أخرى، بين خليفة إمام تمت له البيعة ، ووال متهم ومعتزل . فكانت موقعة الجمل، ثم موقعة صفين ، وهذه الموقعة الأخيرة ، هي الموقعة التي جرى فيها التحكيم، وخذع فيها عمرو بن العاص ، ممثل معاوية في هذا التحكيم، أبا موسى الأشعري ، ممثل علي في هذا التحكيم ، فاتفقوا بهذا التحكيم معسكر علي ، حين ظهرت حيلة عمرو بن العاص، بعدوله عن عزل صاحبه معاوية، ناقضاً اتفاقه مع أبي موسى بأن يعزل كل منهما صاحبه، ويترك الأمر شورى لاختيار المسلمين من جند المعسكرين.

وانصرف عن علي بعض جنده، ولجأ البعض إلى معسكر معاوية، وثار البعض من الخوارج ضد علي ، واتهموه في دينه، وهم الذين كانوا قد رفعوا المصاحف بين المعسكرين ، مطالبين بالتحكيم . وبذلك ضعف موقف علي الخليفة الإمام ، وقوى موقف معاوية أمير الشام المتمرد ، ولم يسفر التحكيم سوى عن بقاء علي خليفة واستمرار معاوية أميراً على الشام ، كما كان . ثم صارت مصر إحدى الولايات التي نجح معاوية في سلبها عن علي بجهود عمرو بن العاص.

وبين موقعتي الجمل وصفين، كانت أحداث تجري على أرض مصر، في الوقت الذي كان فيه الحجاز والعراق موالين لعلي. ففي مصر كانت تجري معارك صغيرة من نوع آخر، بسبب قتل عثمان من أهل مصر، فقد عاد الثوار المصريون إلى مصر، واحتلوا احتلالاً لمنتصر في الفسطاط، وتعاهدوا على الثورة ضد الخليفة الجديد (علي بن أبي طالب) إذا حاد عن السبيل، وكان أنصار الأمويين في مصر يقرضون بالثوار ، ليثاروا منهم لقتل عثمان ، وبايعوا معاوية بن حديج، فقاد محمد بن أبي حذيفة جيشاً لمقاتلة جيش ابن حديج وهزمه، ثم هزمه مرة أخرى ، عند مدينة 'خربتا' في الحوف، شرقي الدلتا ، وكان سواد أهل مصر ، يميلون إلى علي بن أبي طالب.

وعندئذ قرر معاوية أن يواصل عمله لملء مصر عن التبعية لعلي ، فتحرك بجيشه من جند الشام إلى مصر ، ومعسكر عند 'سلمنت' بعين شمس، فخرج إليه ابن أبي حذيفة وأنصاره ليمنعوه بوقال معاوية لابن أبي حذيفة ، إنه لا يريد قتالا ، ولكنه يريد رموس قتل عثمان ،

وعلى رأسهم عبد الرحمن بن عديس، وكنانة بن بشر ، فرفض ابن أبي حذيفة تسليمهم إليه.

عندئذ طلب منه معاوية أن يتبدلا الرهائن ، كي يضمن الجميع أن يكف الفريقان (الشمالي والمصري) عن الحرب ، والخذع ابن أبي حذيفة ، وقدم لمعاوية رهائن ، كان هو واحدا منهم ، واستخلف وراءه على مصر الحكم بن الصلت ، ومعه رهائن من جيش معاوية، وصحب معاوية الرهائن، وحبسهم في القلعة بفسطاطين، وعاد بجيشه إلى دمشق. لكن الرهائن هربوا إلا واحدا أبي الفرار ، هو محمد بن أبي حذيفة ، وعندئذ تتبعهم حامل معاوية على فلسطين وقتلهم ، وقتل معهم محمد بن أبي حذيفة الذي أبي الفرار.

وبلغ على مقتل ابن أبي حذيفة وإلى مصر من قبله ، فولى على مصر قيس بن حبة الأنصاري، فنجح في استمالة المطلبين بدم عثمان ، من الموالين لبني أمية.

وعندئذ لجأ معاوية وعمر بن العاص إلى الحيلة، لإخراج قيس من ولاية مصر ، فأشاعا أن قيسا من شيعة الأمويين ، لا من شيعة على ، وأن رسائل ترد من قيس إلى معاوية ، ومن معاوية إلى قيس.

وعندئذ أمر على وأبيه: قيس بن حبة ، بمحاربة الموالين للأمويين عند "خرقتا"، فرد عليه قيس بأنه لنهم على أنفسهم ليأمن جانبهم وحزبهم ، ففيهم كثير من وجوه أهل مصر وأشرفهم .

وعندئذ عزل على هذا الوالي عن ولاية مصر ، وبعث إليها بوال جديد هو : الأشتر بن مالك ، لكن الأشتر لم يكد يصل إلى مدينة القلزم (المويس)، حتى شرب شربة من صعل قدم إليه ، فمات منها. وجرى مجرى الأمثال قولة لمعاوية : إن شجونا من صعل .

وأرسل على إلى مصر واليا جديدا هو محمد بن أبي بكر الصديق، فأشاع إلى الأمويين ، وطلب من زعيمهم معاوية ابن حديج أن يعلن معه البيعة لعلي ، فأبى الأمويون أن يبيعوا عليا ، فهدم محمد بن أبي بكر دورهم، ونهب أموالهم، وأذى أولادهم، ثم حبسهم، ثم سيرهم إلى معاوية بدمشق ، فظفوا عنده إلى أن انتهت موقعة صفين.

ولتتهز معاوية الفرصة ، بعد تفرق معسكر على ، لصير عمرا ابن العاص على رأس جيش من الشام . وللتقى هذا الجيش بجيش أهل

مصر الذى يقوده محمد بن أبى بكر ، وحمل القتال بين الفريقين ، ونجح معاوية ابن حديج ، وكان قد عاد إلى مصر مع جيش عمرو ، ففى أسر محمد بن أبى بكر للصديق وقتله ، وجعل جثثته فى جيفة حمار ، وأحرقهما بالنار .

وهكذا خضعت مصر للوالى المتمرد معاوية بن أبى سفيان ، وفقدما الخليفة على بن أبى طالب ، ولم يعد لأهل مصر البالغ عددهم عدة ملايين سوى التبعية لمن غلب ، وصار عمرو واليا على مصر من قبل معاوية ولاية مطلقة ، طوال خمس سنوات تقريبا ، ينفق فيها من بيت مالها على أهل مصر ما يشاء إنفاقه ، ويأخذ مابقى له ، ولا يرسل بشئ منه إلى معاوية بدمشق .

وعندئذ فقط ، وبعد أن نجح معاوية فى منلخ مصر عن على ، جهر معاوية بالدعوة إلى نفسه بالخلافة ، وصارع على بن أبى طالب فجمع جيشا قوامه أربعون ألف مقاتل لقتال معاوية ، لكن هذا الجيش لم يكد يتحرك حتى طعن "عبد الرحمن بن ملجم الخارجى" الخليفة الإمام على بن أبى طالب بسيف مسموم ، فاستشهد على فى ذكرى عزوة بدر ، فى السابع عشر من رمضان سنة أربعين هجرية ، على حين فشل خارجيان آخران فى قتل معاوية بدمشق ، وقتل عمرو بن العاص بضباط مصر . ونجا معاوية لأن الطعنة جاءت فى "إبطه" ، ونجا عمرو لأنه لم يغلز بيته إلى المسجد لمرض ألم به ، فقتل من خرج ليصلى بالناس نيابة عنه . وكان الخوارج الثلاثة قد اتفقوا على قتل "على" و"معاوية" و"عمرو" فى ليلة واحدة ، عند صلاة الفجر .

وبمقتل على انتهت صفحة الخلفاء الراشدين من التاريخ الإسلامى الذين كانت بيعتهم تبدأ بالصفوة والنخبة ، وتنتهى ببيعة سائر الناس ، وخلا الجو للأسرة الأموية ، ولأى أمر مغامرة أخرى من بعدها ، بأن تجعل الخلافة وراثية فى أبنائها ، وتجمع فى قبضة واحدة السلطتين الزمنية والروحية معا ، لعقود عديدة من السنين ، وربما لقرون متوالية .

خلا للجو للأسرة الأموية ، فأعلن معاوية نفسه خليفة بعد السيف تارة ، وبالمكيدة والميامة تارة ، وبلاذهب تارة أخرى ، ولم يعقه (بعض الوقت فقط) عن تنفيذ غايته سوى استخلاف أهل المدينة والحجاز والعراق للحسن بن علي بن أبي طالب. ولذلك لجأ معاوية مرة أخرى إلى إطلاق شائعة بين أهل العراق ، أن جيشا للحسن قد انهزم أمام جيش للشام ، وصدق أهل العراق ، وتراجعوا عن بيعتهم للحسن ، وأعطوا البيعة لمعاوية.

واضططر الحسن إلى التنازل عن الخلافة ، حقا لتمام المسلمين ، ولأنه لم يعد له قبل بمعاوية وجماعته من أهل الشام والعراق ومصر ، واشترط في تنازله لمعاوية ، وكان هذا التنازل صلحا ، أن يكون أمر الخلافة بعد معاوية شورى بين المسلمين ، يولون عليهم من أحبوا ، ودخل معاوية الكوفة ، وأخذت البيعة لمعاوية بحضور الحسن والحسين ابني علي ، وسمى ذلك العام عام الجماعة.

لكن ، في عام الجماعة هذا صارت الخلافة بمعاوية ملكا عضوطا يورث ، ومعصورا في الأسرة الأموية ينتقل فيها من بيت يزيد بن معاوية إلى بيت مروان بن الحكم لا بس ، فلمهم أن الخلافة باقية بالتوارث في الأسرة الأموية ، وكانت أول أسرة إسلامية حاكمة في تاريخ الإسلام ، فقد نبذ معاوية عهده مع الحسن ، وكان الحسن قد انتقل إلى رحمة ربه ، وأخذ معاوية البيعة لابنه يزيد ، مستخدما أسلحته الشهيرة سيف المعز وذهب المعز ، ومكائد الداهية ، وميادته مع الشعرة التي لا تقطع بينه وبين الناس ، لأنه يرخيها حين يشدها الناس ، ويشدها حين يرخيها الناس.

وهكذا انتصرت الأسرة الأموية لانتصارا لارستقراطية مدويا في التاريخ كله ، انتصروا صلات لهم به لمبراطورية ، وصار حكمهم حكما

امبراطوريا، يرتدى ثوب الخلافة الإسلامية ، ويجمع تحت عباةته  
السلطتين الزمنية والروحية معا.

ولقد دامت امبراطورية الأسرة الأموية تسعين سنة، لم تعد فيها  
شروط الخلافة ، لا العدل ولا رعاية مصالح الناس ، ولا الشورى ، إلا  
فى زمن قصير ، لرجل واحد هو الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز، فقد  
أعاد عمر هذا عدل جده لأمه عمر بن الخطاب ، والإمام على ، واسترد  
الإقطاعيات لبیت المال، وعزل ولاية. وربما لذلك السبب كان استشاده  
مسموما من الناقمين عليه من أمراء الأسرة الأموية ، مثلما استشهد من  
قبله ثلاثة خلفاء راشدين من خلفاء الشورى هم: عمر ، وعثمان، وعلي،  
بينما ظل معظم خلفاء القهر أحياء ، وماتوا على فراشهم.

• • •

والأعوام الثلاثون الأخيرة من عمر دولة بنى أمية، كانت أيام تخطيط وتنظيم وتآمر ، اشترك فيها العلويون (الذين قتل منهم بنو أمية المئات ، ومن أتباعهم من الشيعة عشرات الألوف) مع العباسيين الذين ملأ الحزن قلوبهم لما يلقاه العلويون ، وهم من بنى هاشم ، من تعذيب وتقتيل ، وانتشر الدعاة لآل البيت (بنى هاشم) في فارس ، وخراسان ، خاصة ، وبلاد العالم الإسلامي عامة ، يدعون للرضا (أى لمن يرضاه الناس) من بنى هاشم، من العلويين أو العباسيين ، وكل من العلويين والعباسيين يضمرون أن تكون الخلافة له دون سواه.

وتوج التخطيط والتنظيم والتآمر ، بسلالة مسخط اليمينية ضد المضمرية، بسقوط مروع وسريع لدولة بنى أمية ، والخلافة الأموية الوريثية الاستبدادية القهرية ، فارفع العلم العباسي فوق دمشق ، والكوفة ، وطورد مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، حتى قتل في مصر . وراح أبو العباس السفاح ، للمؤسس الأول للدولة العباسية ، يتبع كل أموى لقتله ، وكل وال أو عامل للأمويين لقتله، وكل نصير للأمويين لقتله ، بعد أن يساموا بالمسياط سوء المذاب .

كان بنو هاشم جميعا عباسيين وعلويين يضمرون لبئس أمية عداء قديما منذ أيام الجاهلية ، وعداء باقى الأثر، لم تزده الخلافة الأموية ، وأفاعيلها ببنى هاشم ، إلا ثقفا وزديادا. وأنكى نيران هذا العداء فى بنى هاشم ، أشعار الثعمراء ، وأقوال رجال البلاط ، منكرين أبى العباس السفاح، ومن جاء بعده من خلفاء بنى العباس ، بما فعله بنو أمية ، من سفك لدماء آل البيت الهاشميين. وكان آخر ، وأخطر دم سفك ، فى رأى أبى العباس السفاح هو دم أخيه "إبراهيم الإمام" ، قتيل "حرار" فى عهد مروان بن محمد ، آخر خلفاء بنى أمية ، وكان إبراهيم الإمام ، هو الداعية المرشح من العباسيين لخلافة دولة بنى العباس ، وكان قد نجح فى



استقطاب اليمينية والفرس، وأهل خراسان لكنه قتل، وانتقاما لمقتله قتل عبد الله بن علي ، عم أبي العباس السفاح ثلاثمائة أموي، بينهم إبراهيم بن الوليد، أخو الخليفة يزيد للناقص ، ولقد بعث هذا العم إلى أبي العباس السفاح ، باثنين من الأمويين لهما شأن كبير ، هما: يزيد ابن معلوية بن عبد الملك . وأخوه : عبد الجبار، فقتلها السفاح ، وصلبهما ، على شاطئ نهر أبي قطرس بفلسطين، وقدم إثر قتلها للقتل خلق كثير (200 قتيل) من بني أمية الهاربين.

وحين أتى لأبي العباس السفاح برأس مروان بن محمد ، ووضع بين يديه ، سجد السفاح ، وأطال سجوده ، ثم رفع رأسه قائلا لرأس مروان: "الحمد لله الذي لم ينق ثأري قبلك ، وقبل رهطك . الحمد لله الذي أظهرني بك، وأظهرني عليك".

ثم قال : "ما أبالي متى طرقت الموت ، فقد قتلت بالحسين وببني أبيه مائتين ، وأحرقت أشلاء هشام وابن عمي "زيد بن علي"، وقتلت مروان بأخي إبراهيم (الإمام).

وحين كان هشام ب البلقاء، كان عنده سليمان بن هشام بن عبد الملك ابن مروان ، وقد أتاه مبايعا ، فآكرمه السفاح، وأمنه ، لكن "سديفا" الشاعر دخل أذن على السفاح. وقال له :

لا يفرنك ما ترى من رجال  
إن تحب الضلوع داء روبا  
فضع السيف وارفع الموط حتى  
لا ترى فوق ظهرها أمويا

عندئذ صرخ سليمان قائلا لسديف: "قتلتني يا شيخ" . وعندئذ أخذ السفاح سليمان وقتله.

والصورة الأقطع والأشجع ، حين كان السفاح جالما ، وقد قدم الطعام على مشهد من مبعين أسيرا أمويا، ونهض شاعر واستفز السفاح يحرضه بشعر، كي يقتل أسراه الأمويين ، متكررا إياه يقتل بني هاشم على يد بني أمية: حمزة بن عبد المطلب عند ماء المهراس بأحد، والحسين بكربلاء ، وزيد بن علي ، وأخوه إبراهيم الإمام ، وعندئذ أمر السفاح بأسراه من بني أمية، فضربوا أولا بالسياط، ثم بسطت النطوع ، وقطعت

الرموس، وطعنت القلوب ، وأمر الصفاح ببسط البسط فوق جثث القتلى،  
والذين لا يزالون يحتضرون، ومدت موائد للطعام للصفاح ومن معه من  
بنى العباس فوق البسط، وجلسوا يكلون ، وموسيقاهم أنين المحتضرين.  
وكان إخوة الصفاح ، وأعمامه، هناك فى البصرة ، والكوفة ،  
والشام، يستاصلون هنا وهناك شاقة بنى أمية ، وينبشون قبور موتاهم ، فلا  
يجدون بها سوى الرمال.

ولقد ظلت روح الانتقام العباسى تطارد العباسيين ضد بنى أمية ،  
طوال مائة عام، فى عهد عشرة خلفاء ، وتتمنى أن تطول أحدا من بنى  
أمية على قيد الحياة، فالعداء كان شديدا ودغينا بين بنى أمية وبنى هاشم،  
جاهلية وإسلاما.

ومتلما كان خلفاء بنى أمية يلعنون عليا والعلويين من فوق  
المنابر، راح العباسيون يلعنون معاوية والأمويين على المنابر فى كافة  
الأقطار والأمصار الإسلامية، صلا بالمنة العربية المتبعة عبر للتاريخ :  
كلما دخلت أمة لعنت أختها ، حتى يداركوا فيها جميعا ، دنيا وأخرة .

وفي الدولة العباسية تطور نظام الخلافة إلى نظام مماثل لنظام الفرس العباسي الذي كان يحكم به آل سامان . وكان هذا النظام يقول بنظرية الحق للملكي المقدم ، فمن يحاول أن يتولى الملك من خارج البيت المالكي ، يعتبر مغتصباً لحق غيره. وبذلك صار الخليفة العباسي يحكم بتفويض من الله ، لا من الشعب. يقول أبو جعفر المنصور في ذلك "إنما أنا سلطان الله في أرضه" . فهدم بذلك أساس خلافة الاختيار في عهد الخلفاء الراشدين . وأرسم بعد الأمويين خلافة القهر وحصرها في آل البيت ، وفي البيت العباسي دون البيت العلوي ، وفي البيت الهاشمي دون البيت الأموي. وحذا العباسيون حذو الأمويين من قبلهم في تولية العهد لأبنائهم. حد العباسيون أنفسهم وارثو بيت الرسول ، وأعطوا لأنفسهم الحق في أن تكون حكومتهم الخلافة حكومة دينية تجمع بين السلطتين الزمنية والروحية . وصار الحكم في الدولة العباسية استبدادياً . في يد الخليفة وحده ، فوق أمراء البيت العباسي ، وأصحاب المناصب العليا . فهو مصدر كل قوة ، ومرجع كل الأوامر المتعلقة بالدولة . وكل من سواه معه مجرد مستشار غير رسمي. وذلك النظام هو نفسه نظام الحكم الفارسي . ومثل أباطرة الفرس احتجب الخليفة العباسي عن للرعية ، وأحاط شخصه بالقداسة والرهبية ، واتخذ للوزير والسيف ، تحوطه الأبهة والعظمة ، وينحني أمامه الداخل عليه . ويقبل الأرض بين يديه ، وإذا سمح له بالقرب منه ، كان له شرف ثقيل رده ، وهو شرف لا ينافه إلا الرجال البارزون. وعاش الخليفة العباسي حيشة الأكاسرة ، وفي بلاطه أعياد هي أعياد الفرس القديمة : النيروز والمهرجان ، والروم ، ومواها . فالخلافة العباسية كانت مثل الخلافة الأموية خلافة قهر ، ملكية ، وراثية استبدادية ، حرصت دائماً على الاحتفاظ بولاية العهد ، لتظل الخلافة في البيت العباسي. ولأن الدولة العباسية قامت على معاندة الفرس ،

فقد ساد فيها، في عهدها الأول على الأكل ، النفوذ الفارسي إلى عهد الرشيد. وكان المأمون الخليفة العباسي السابع من أم فارسية ، وتزوج أيضا من فارسية، فكان ظهور العباسيين كان شبيها بثورة فارسية أسفرت عن بعث جند لحكم الأكاسرة ، ويعتدل حاضرتها الجديدة .

ولأن الخليفة قد اتخذ مظاهر الاحتجاب عن الرعية ، فقد صار لا يؤم بنفسه الناس في الصلاة، ولا يقيم خطبة الجمعة ، مثلما كان يفعل الخلفاء الراشدون ، وبعض الخلفاء الأمويين.

ولقد حرص الخلفاء العباسيون ، خليفة بعد خليفة ، على ارتداء بدة النبي صلى الله عليه وسلم ، عند حضوره مراسم تولي الخلافة ، وعند حضوره الحفلات الدينية، تأكيدا لكونه نائبا عن الرسول في حكم المسلمين، وتأكيدا لحق العباسيين في وراثة الحكم، دون العلويين .

بل لقد صار الخليفة العباسي يلقب نفسه، تؤكد سلطته الدينية أيضا، بلقب إمام ، وكان الشيعة يطلقون هذا اللقب على أفراد من البيت العلوي . ومن قبل كان لقب إمام مقصورا في اللغة وفي المجتمع وفي المعرف الديني على من يؤم الناس للصلاة . ولذلك حرص الخلفاء العباسيون ، الذين يستندون إلى نظرية التفويض الإلهي، على تقريب العلماء ورجال الدين الذين راحوا ينشرون بين الناس هذه النظرية .

في ظل خلافة للقهر العباسية وطوال 98 سنة (750 - 847م) دار الصراع عنيفا ، بعد قيام الخلافة ، بين أربعة أحزاب سياسية : الحزب العباسي الحاكم باسم الأسرة العباسية ، والحزب العلوي ممثلا في الفرس الطامعين في الميملطان ، والحزب العربي المماخط على العباسيين لاستمرارهم في التمثيل ببني أمية ، وحزب حركات الموالى (الفرس) الطامع في الاستقلال عن الحكم العربي . وتتمثل حركات الموالى في : الزاوندية ، والمقنعية ، والخرسانية ، وكلها كانت حركات فارسية .

ولم يتوقف العباسيون عن التتكيل ببني أمية بالمطاردة والإبادة ، والتتكيل والقتل . وبرزنت هذه المطاردة وتلك الإبادة على شدة العداء بين أمية والهاشميين جميعا ، وكان هذا العداء أحد أسباب انصراف العرب عن العباسيين ، وكراهية العرب للعباسيين ، لاحتدادهم على الفرس ، وإيثلوهم الفرس بالسلطة والمناصب دون العرب .

فقد كان الفرس يمثلون العباسيين ويسعون في الوقت نفسه للقضاء على الدولة العباسية ، تحت راية العلويين تارة ، وراية حركات الموالى تارة أخرى . ولذلك قامت الفتن والثورات في البلاد الإسلامية وراح العباسيون ، وهم في موقف الدفاع عن النفس ، والاستشهاد بالخلافة ، وبالحكم ، وبموارد الخلافة ، يدافعون عن أنفسهم ضد هذه الفتن وتلك الثورات .

غنى العباسيون مسمى العلويين في الأمصار لتقويض دولة خلافة القهر الأموية ، وجنى العباسيون ثمار هذا السعى ، بمحاربة العلويين . فكلاهما هاشمي . ويتنازل ابن الحنفية زعيم العلوية عن الخلافة للعباسيين ، لعدم ثقته في قدرة العلويين على تولى أمور الخلافة ، بعد فشل حركاتهم السياسية كلها . طوال عصر بني أمية .

وقد حبر أبو جعفر المنصور (الخليفة الثاني) عن هذا الفضل العلوي ، حين راح يعدد صور هذا الفضل موجهاً خطابه إلى الخرسانيين . (وكانوا أنصار الخلافة العباسية في المشرق الإسلامي) من فوق منبر الهاشمية . قال :

"يا أهل خراسان . أنتم أنصارنا ، وأهل دعوتنا . ولو بايعتم غيرنا لم يتابعوا خيراً منا . إن ولد ابن أبي طالب تركناهم ، والذي لا إله إلا هو - والخلافة . لم نعرض لهم بقليل ولا كثير . فقام فيهم علي بن أبي طالب فما أفلح ، وحكم الحكمين ، فاختلعت عليه الأمة ، واقتربت الكلمة . ثم وثب عليه شيعته وأنصاره فقتلوه ، ثم قام بعده الحسن بن علي رضي الله عنه ، فوالله ما كان برجل (١١) ، عرضت عليه الأموال (من معاوية) فقبلها . ودمس إليه معاوية : إني لأعلك ولي عهدي . فخلع نفسه . وانسلخ مما كان فيه وسلمه إليه (إلى معاوية) . فلم يزل كذلك حتى مات علي فراشه . ثم قام من بعده الحسين ابن علي رضي الله عنه ، فخذعه أهل العراق والكوفة .. فأسلموه حتى قتل . ثم قام بعده زين العابدين بن علي فخذعه أهل الكوفة وضروه . فلما أظهروه ، وأخرجوه ، أسلموه . وكان أبو محمد بن علي قد ناشده في عدم الخروج . وقال له : لا تقبل أقابيل أهل الكوفة . وناشده الله بذلك صبي دلود فلم يقبل . وقتل وصلب بالكناسة . ثم وثب بنو أمية علينا (نحن العباسيين) فأماتوا شرفنا وأذهبوا عزنا . والله ما كان لهم عندنا ثرة (أثر) يطلبونها . وما كان ذلك كله إلا فيهم ، وبسبب خروجهم ، فنقلونا من البلاد . فصرنا مرة بالطفلف ومرة بالشام ، ومرة بالشراة . حتى ابتعثكم الله (أيها الخرسانيون) لنا شيعاً وأنصاراً . فأحيا الله شرفنا ، وأعزنا بكم . وأظهر لنا حقنا ، وأصلر إلينا ميراثنا من نبينا صلى الله عليه وسلم . فقر الحق في قراره . وقطع دابر القوم الذين ظلموا". (مروج الذهب للمصعودي)

أثر العباسيون الفرس على العرب . ولقد العباسيون الفرس ، فسي مظاهر البلاط العباسي الذي كان ، وفي لباسهم ، واحتفالاتهم ، وأظهر الفرس الولاء للعباسيين ، ومقدومهم في المشرق الإسلامي في إقامة دولة ، لكن الفرس في جوهرهم ، وملوكهم المستقر تحت الأرض ، كانوا يشايعون العلويين ، ويرونهم أحق بتاج الخلافة ، والوراثة لأل عباس من جهة أهم شهر بانوه" ابنة يزيد بن الثالث ، آخر ملوك الساسانيين . والفرس طوال

التاريخ كانوا يقيمون ملوكهم . والعلويون عندهم ، خلاصة أبناء الحسين بن علي من شهر بقوة يمثلون حق ميراث النبوة ، وحق ميراث آل ساسان معا ، فاستحقوا عندهم أن يقيموا .

وانذاك حين حاول أبو مسلمه خلال داعية الهاشميين العباسيين تحويل الدعوة إلى العلويين ، بعد القضاء على دولة بني أمية . دس له المنصور (الخليفة الثاني) من قتله . وحين حمل الفضل بن سهل المأمون (الخليفة) على أن يولي عهده علي الرضا، ويتخذ الخضره شعار العلويين بدل السواد ، لم يلبث المأمون أن دس له من قتله بالسم . وحين حاول أبو مسلم الخراساني، تحويل الفوز العباسي في المشرق الإسلامي ، إلى العلويين دس له من قتله ، وحين تزعم عبد الله بن علي عم الخليفة المنصور المباخطين من العرب، بالمر المنصور بمحاربة أبي مسلم الخراساني فقتله . ولقد قتل أبو مسلم في حروبه ضد خصوم العباسيين في عهد السفاح، والمنصور ستمائة ألف صبيرا (جوعا وعطشا)!!

وبمقتل أبي مسلم الخراساني ، تفجرت الفتن والثورات في الدولة العباسية، ضد العباسيين : ثورة المجوس سلبها الخراساني . وثورة المقتنع الخراساني ، وثورة الزوندية ، وثورة الخرمية ، وثورة الأفشين بالاضترار مع المازيار، وثورة الزنادقة ضد الإسلام نفسه . وكلها ثورات كانت تحاول الانتقام لمقتل أبي مسلم الخراساني، وفي الوقت نفسه تسعى للاستقلال بالمشرق الإسلامي تارة ، وتنزع بنصرة العلويين تارة أخرى . وكلها ثورات هزمتها الخلافة العباسية ثورة بعد ثورة ، فتعود كل ثورة للكمون ثم تعود للظهور .

وطوال 98 سنة ، فى عهد خلفاء القهر العباسيين العشوة الأول ، لم ينس العلويون العرب . حقهم فى الخلافة ، منذ مقتل الحسين بن على فى كربلاء ، بالدعوة دائما ، وبالقوة ورفع السيوف أحيانا ، وحين يأنسون من أنفسهم ضعفا يستكينون ، مكتفين بقلب الإمامة ، والقربة من النبى ، مؤثرين العيش الهادئ والاستغال بالتجارة ، منصرفون عن السياسة والحرب إلى الاستغال بالدين . فعلوا ذلك فى خلافة القهر الأموية ، وكرروا فعله فى خلافة القهر العباسية ، وكان محمد النفس الزكية أول المتطلمين إلى الخلافة من العلويين ، فى خلافة العباسيين . وفشل العباسيون فى استرضاء العلويين بالقول اللين ، والعطايا الجزيلة ، امتنع محمد النفس الزكية عن مبايعة السفاح ، بالخلافة ، وأحاط أهل المدينة بمحمد النفس الزكية . وأحاط أهل العراق بأخيه إبراهيم فى العراق . وكان مطلبهما هو الخلافة .

ولم يكن من الحرب بد ، وتواجه جيشان : جيش للمنصور الكثير العدد والعدة ، وجيش محمد بن الحنفية القليل العدد والأصغر ، وكانت الهزيمة ساحقة ، وقتل محمد النفس الزكية ، ثم تبعه أخوه فى العراق ، وخاض الحربيين معهما موسى بن عيسى ، عم المنصور ، وولى عهده . ولقد رجا المنصور أن يقتل صه عيسى فى هذه الحرب ، كى يتمكن من تحويل ولاية العهد لابنه المهدي ، لكنه عاد إليه حيا ومنصرا .

وسكن العلويون إلى حين ، ثم عادوا إلى الثورة تحت راية الحسين ابن على المطالب بالخلافة فى ساحة الحرب ، فى عهد الخليفة الهادئ . وكفت ثورته بمكة والمدينة وقشلت ثورته ، وقبض عليه وحبس بدار جعفر بن يحيى البرمكى التأثير لعمه موسى بن عيسى ولى عهده ، وبادر موسى بن عيسى بقتله بعد أن أعطاه الأمان .



وسكن العلويون إلى حين ، ثم علنوا إلى الثورة مطالبين بالخلافة في عهد الرشيد . وتزعّم الثورة الأخوان يحيى وإدريس ابننا عبد الله . وبالتحذير والترغيب ، مال يحيى إلى الصلح ، فأرسل إليه الرشيد الهدايا والتحف ، فقدم يحيى على الرشيد فاحتفى به ، واستلقى الفقهاء في نقض الأمان فأقتوه . فحبسهم في داره . وفر إدريس ، بعد صلح أخيه يحيى إلى مصر ، ثم إلى بلاد المغرب ، فالتف حوله البربر ، وأترك الرشيد أنه لا قبل له في إخضاع إدريس بحد السيف . ولذلك لجأ الرشيد إلى الحيلة ، فأس عليه داهية تودد إليه ، وسب عنده العباسيين فقربه إدريس ، وعندئذ دس داهية الرشيد له السم فمات .

وانتظر أتباع إدريس أمة له حاملا ، حتى وضعت ولدا أسماه إدريس ، وباعوا الوليد بالخلافة فقامت دولة الأدرسة بالمغرب . وعندئذ أقطع الرشيد القائد إبراهيم بن الأغلب بلاد تونس ، فأسس دولة الأغلبية ، لتكون حاجزا بين دولة الأدرسة والدولة العباسية ، وبين الرشيد والصغير إدريس .

وسكن العلويون إلى حين ، حتى كان عهد الخليفة المأمون . فثار عليه محمد الديباج بن جعفر الصادق العلوي ، قبل أن يولى المأمون عهده لعلى الرضا بن موسى الكاظم . وكانت ثورة محمد الديباج بمكة ، وبإيمانه أهل الحجاز بالخلافة ، وأرسل إليه المأمون جيشا هزم جيشه ، وأسره وعفاه عنه . وعندئذ تزعم أبو المبريا ثورة العلويين ، فقاتله الحسن بن سهل وقتله . فقام مقامه "لقاسم بن إبراهيم" وتزعّم ثورة العلويين في الحجاز والكوفة ، والري ، وقزوين ، وطبرستان ، وبلاد الديلم ، وطارده جيش الخليفة المعتصم حيث كان يقيم بمصر ، ففر إلى الحجاز ، ثم إلى اليمن ، واختفى في اليمن بين عامة للناس .

ولم يكن للصراع العباسي العلوي على الخلافة بين من بيدهم الخلافة ومن يطالبون بها قاصرا على الحرب . فورا هذه الحرب كان شعراء علويون يؤثرون نارا عن اعتقاد ، ويمدحون العلويين ويهجون العباسيين . وكان شعراء عباسيون يحرضون الخلفاء العباسيين على الحرب ، في ملق ونفاق ، ويمدحون العباسيين ويهجون العلويين ، ويقودهم مروان ابن أبي حفصة ، وكان شاعرا نفعا يسير في ركاب السلطان

العباسي وصاحب السلطان العباسي يمدح هذا وذلك ويهجو هذا وذلك طلبا للعطاء ، وكان من قبل شاعر مروان بن محمد ، آخر الخلفاء الأمويين .

ووراء هذه الحرب ، كان لكل من العلويين والعباسيين علماء ومتكلمون يتحدثون عن الإمامة (الخلافة) وحق الإمامة ، بينهم فقهاء ، وعلماء كلام ، وبينهم أنصار السنة (العباسيون) العلويون ، وأنصار الشيعة (العلويون) العلويون منهم والمصريون . ولقد كان أحد أسباب نكبة الفرس البرامكة ، ذلك العداء العباسي للعلويين وأكثرهم من الفرس ، وخوف الرشيد من ركوب البرامكة أصحاب النفوذ في خلافة لموجات الثورات العلوية ، المطالبة لنفسها بالخلافة . كذلك كان الصراع بين الخليفتين العباسيين : الأمين ، والمأمون ، صراعا بين العرب والفرس في حقيقته ، أو أنصار السنة وأكثرهم من العرب ، وأنصار الشيعة وأكثرهم من الفرس ، وكان المأمون ابن الجارية مرسل الفارسية ، يميل إلى الفرس وإلى المذهب المعتزلي وإلى العلويين ، ويحتاج نصرة الفرس له بعد رحيل أبيه . وقاد الصراع بين الأخوين قادة حرب سنيون من هنا ، وقادة فرس علويون من هناك ، ولقد دفع هذا الصراع ، على الخلافة ، بين الأخويين - الأمين العربي الأم ، بل الخليفة العباسي الوحيد العربي الأم ، والمأمون الفارسي الأم ، دفع الخليفة المأمون إلى مهادنة العلويين ، وتعيين على الرضا العلوي ، وليا لعهد ، إلى أن استقر له أمر الجلوس في إيوان الخلافة ببغداد ، وعندها فقط أوجز المأمون بقتل وزيره ، ونصير على الرضا : الفضل بن سهل ، ثم قتل على الرضا ، بدم السم له في حلقود من العنب .

وجهد المعتصم بعد المأمون ، للهروب من هذا الصراع بين السنة والشيعة ، وبين العرب والفرس ، وبين سخط العرب على الفرس أعوان الخلافة العباسية ، فأنشأ حرما له (هو التركي الأم) من الترك ، وأسند لهم مقاليد الدولة ، وقيادة الجيوش ، وبلغ عدد الجند الترك في جيش المعتصم خمسين ألفا ، ونقل عاصمة الخلافة من أبلهم ، وحماية لنفسه ، ولاهل بغداد من بغداد إلى سامراء ، ومن هؤلاء القادة الترك : أحمد بن طولون . وصار ولاته على الأقاليم من الترك ، وكان هؤلاء الولاة حريصين على الإقامة بالقرب من الخليفة ، وينيبون عنهم ثوابا من الترك ،

يقومون لهم ، ويلصمهم ، بأسور الولايات، من مصر إلى بلاد ما وراء النهر .

وراح العرب يتآمرون على حياة المعتصم نفسه، وحياة قانتهم الأكراك مثل: الأضيبي وأشناس، ومن هؤلاء المتآمرين الثأرين للعرب : عجيف بن عنبسه، للقائد العربي الذي قهر ثورة السزط لصالح الخليفة المعتصم ، وكان مصير عجيف القتل بأمر المعتصم ، إثر انكشاف مشاركته في مؤامرة ضده .

ولقد أخذ ظهور العنصر التركي الصراع بين الفرس والعرب ، وبين العلويين والعباسيين إلى حين . واستأثر العنصر التركي بالأمر دون الفريقين . ولكن هذا الإخماد نفسه كان قهرا وقمعا من جهة، وسحبا للأرض من تحت أقدام العباسيين من جهة أخرى، فبدأ ظهور دول الأطراف المستقلة عن الخلافة وشبه المستقلة: الزيدية باليمن ، والطولونية فالإخشيدية ، بمصر والفاطمية ببلاد المغرب ، والصفارية ، فالسامانية ، فالغزنوية ، فالعلوية بطبرستان ، مع نهايات عصر الخلفاء العباسيين العشرة الأول من أبي العباس السفاح إلى المتوكل بالله . وكانت دولتان أخريان من دول الأطراف قد سبقتهما في الوجود هما دولتان : الأدراسة بالمغرب، والأغالبة بتونس، وكانتا قد قامتتا في عهد الخليفة الرشيد، ومن قبلهما كانت الدولة الأموية قد قامت في الأندلس في عهد الخليفة الثاني أبي جعفر المنصور .

انقضى للقرن الأول من عمر الدولة العباسية ، وخلفاء القهر العباسيون يحاولون المحافظة على الامبراطورية الأموية التي ورثوها من تخوم الهند إلى بحر الظلمات ، وتحقيق التوازن بين العرب والفرس والترك ، وبين السنة والشيعة ، والمذاهب الأخرى المعبرة عن حركات الموالى . وكثفت محاولات الخلفاء للإمساك بالعصا من الوسط ، والاستمرار في إقامة التوازن ، تختل في أيديهم تدريجيا جيلا بعد جيل ، وأدى هذا الاختلال إلى إقامة ثلاث دول مستقلة في الطرف الغربي للامبراطورية العباسية ، وإلى سيطرة العنصر التركي على الخلافة والخلفاء والدولة العباسية بأسرها . فبدأ جسم الدولة العباسية في التفتك والانفصال شرقا ، وغربا ، وشمالا ، وجنوبا .

فمن عهد الخليفة (المعتمد) الخليفة المتوكل بالله إلى عهد الخليفة (الثاني والعشرين) المستنصر بالله بدأت النهاية البطيئة للدولة ، ثم ازداد سرعة انحلال الخلافة العباسية ، والدولة العباسية ، حتى انحصرت الخلافة في العراق ، وأجزاء قليلة من فارس تحيط بها ، وصارت سيطرتها على هذه المنطقة وحدها خاضعة لإرادة الترك ، ثم لإرادات إمرات الأمراء من الولاة والقواد ، وزاد ظهور عدد دول الأطراف حول العراق شمالا وجنوبا ، وشرقاً ، وغرباً خلال 97 سنة.

وزخرت هذه الفترة من عمر الدولة العباسية بالحركات السياسية الثورية ، وبالاتجاهات الدينية . والحركات السياسية الدينية في وقت واحد ، وأدت هذه الحركات بأقوائها : إلى ازدياد عدد دول الأطراف المستقلة ، وشبه المستقلة ، وإلى انتشار المبادئ الشيعية ، وبخاصة مبادئ الإسماعيلية في : مواد للكوفة ، والبحرين ، وشمال العراق ، واليمن ،

وبلاد الفرس . وإلى تمكن دعاة الإسماعيلية من إقلمة الدولة الفاطمية ، والخلافة الفاطمية في المغرب أولا ، ثم في مصر ففلسطين فالشام فبلاد الحجاز ، وبلغ من نفوذ هؤلاء الدعاة أنهم خطبوا على المنابر في مدينتي الموصل وبغداد باسم الخلافة الفاطمية حيناً من الزمن ، وتحت مسم الخلافة العباسية وبصرها .

كذلك أدت هذه الحركات إلى ظهور ثورة الزنج ، وثورات الخوارج وحركات المعتزلة ، وظهور المذهب السني الأشعري ، وظهور داعية التصوف الإمام الغزالي ، وتطورت آراء المتصوفين ، المعتزلين منهم ، والمغالين ، في نظر أهل السنة .

في تلك الفترة ، استقل العلويون الزيديون باليمن ، واستقل العلويون الإسماعيليون بالشمال الأفريقي ، والشام ، والحجاز . ولم يستطع الخلفاء العباسيون في هذه الفترة مقاومة هاتين الدولتين الوليدتين إلى عهد البويهيين ، الذين دعاهم الخليفة المستكفي بالله لدخول بغداد ، كى يلقذ الخلافة ، فابتلعوها ، وابتلعوا معها في الحقيقة الخلفاء العباسيين التاليين من بعده .

وفي تلك الفترة ، حدثت ثورة القرامطة ، وهم أيضاً علويون إسماعيليون ، وكانوا مناولين للعباسيين والفاطميين معاً ، وقد أحدثوا كثيراً من الفتن والاضطرابات في العراق ، والشام ، واليمن ، وجزيرة العرب بأعبرها ، وقضى على زعماء ثورتهم الثلاث ولحدا بعد آخر بأيدي الزيديين ، وأبدي العباسيين .

وفي تلك الفترة حدثت ثورات الخوارج بالموصل . ثورة مساور الشاري بالموصل ، وثورة طوق الزهيري ، وثورة أيوب بن حيان ، وثورة محمد بن يحيى الوراقى . وثورة هارون بن عبد الله ، وثورة محمد ابن عبادة . وقضى الخلفاء للعباسيون ، بواسطة قلائتهم للترك على هذه الثورات ثورة بعد ثورة .

وفي تلك الفترة حدثت ثورة الزنج ، وقد دامت هذه الثورة 14 سنة وأشاحت الرعب في البصرة ، وواسط وبغداد ، وقام بها جماعة من عبيد أفريقيا ، هربوا من مملكتهم العرب والفرس والترك في القرى المجاورة ، ومن البؤس الذى يعيشونه ، فقوتهم أبدا قليل من الدقيق ، والتمر ، والسويق ، وكانوا لا يتقاضون من الأجر شيئاً ، وأكثرهم كان

يشتغل بإزالة طبقة الملح من أرض العراق . وقاد هذه الثورة الفارسي :  
علي بن محمد ، وكان من أمالي الطالقان ، ولادعى أنه من نسل علي زين  
العابدين بن الحسين بن علي . ومع أنه شيعي فقد جهر بأراء الخوارج .  
وقد انتشرت جيوشه في العراق ، وخوزستان ، والبحرين ، ودامت  
الحروب بين العباسيين وبينهم من سنة 255 هـ إلى سنة 270 ، وكان  
عددهم قد بلغ 552 ألفا من العبيد الأفارقة .

وفي تلك الفترة ، قتل العباسيون المتصوفين : الحسين بن  
منصور الحلاج متهما بأنه ادعى الألوهية في عهد الخليفة (الثامن عشر)  
المقتدر ، وقتلوا المتصوف الشيعي متهما بأنه ادعى الألوهية في عهد  
الخليفة (الحادي والعشرين) الراضي بالله .

وفي تلك الفترة توالى ، تباعا ، نشوء دول مستقلة جديدة من دول  
الأطراف في المشرق ، والشمال ، والجنوب : الصفاريون ، فالسامانيون ،  
فالطولونيون ، فالحمديون ، فالإخشيدون ، فالغزنويون ، ولقد ورثت بعض  
دول الأطراف بعضها الآخر . فورث الصفاريون السامانيين ، وورث  
الغزنويون أيضا السامانيين . وورث الإخشيدون الطولونيين .

فى عهد الخليفة الراضى بالله ، كان أمراء الدولة العباسية فى المشرق يتصارعون على ما تحت أيديهم من إمارات عباسية ، وكان أقواهم فى النهاية هو ركن الدولة بن بويه. وكان لراضى يستعين فى إدارة شئون دولته بوزراء ضعاف، يبتلون له مالا كثيرا لينفعهم إلى مرتبة الوزراء ، ولم يكن لهؤلاء الوزراء من هم، وقد دفعوا ما دفعوه للخليفة، سوى جمع المال ، وإهمال إصلاح شئون الدولة العباسية ، بسبب ازدياد نفوذ كبار القواد وتدخلهم فى أمور الدولة.

وعندئذ استقال لراضى القائد الأمير ابن رائق ، أمير واسط والبصرة ، وسلمه مقاليد أمور الخلافة سنة 324 هجرية . بعد توليه للخلافة بعامين ، ولقبه بلقب "أمير الأمراء"، وصار بيده تولية الولاية وعزلهم، وعلت مرتبة هذا الأمير ، وخطب له على منابر الدولة العباسية. ومنذ ذلك الحين نشأ عهد إمرة الأمراء فى الدولة العباسية. واستمر هذا العهد عشر سنوات تفجر فيها الصراع بين ابن رائق والأمراء الآخرين ، على لقب أمير الأمراء وسلطته، فى فارس والعراق ، ومصر ، والشام، طوال عهدي الخليفين الراضى بالله ، والمعتقى بالله، فصارا ليس لهما من الأمر شيء .

وكانت دولة بنى بويه أقوى دول الإمارات بفارس . ولم يجد الخليفة المستنكى بالله بدا من استدعاء البويهيين ليدخلوا بغداد . فدخلها معز الدولة البويهى فى زى حسكرى علم 334 هجرية .

وبادر معز الدولة ، وكان شيعيا ، بإهانة الخليفة المستنكى، ولقبض عليه وسمل عينيه ، وأجلس المطيع بالله مكانه على عرش الخلافة، وحدد له ألف درهم فى اليوم ، ثم حدد له إقطاعات يسيرة يعيش منها ، وعين له كاتباً يشرف عليها ، وعين ابنه بختيار أميراً للأمراء ، بعد عشر سنوات من دخول بغداد . ومنذ ذلك الحين صار للخليفة العباسى خليفة

بالاسم ورمزا دينيا ، من آل بيت الرسول ، ودامت ميطرة البويهيين على بغداد ، والخليفة في بغداد 113 سنة .

وكان بنو بويه غالبية ، فلم يعترفوا بحق الخليفة العباسي السنّي في زعامة المسلمين ، ولذلك لم يتركوا له سوى ذكر اسمه في الخطبة ، ونقشه على السكة ، لأغراض سياسية ، غايتها أن يعطى البويهيون حكمهم صبغة شرعية في بلاد سنّية ، وأن يحتفظوا بمراكزهم أمام جمهور سنّي ولولا خوفهم من ضياع نفوذهم العباسي ، أمام هذا الجمهور السنّي لحولوا الخلافة إلى العلويين . ولذلك اكتفوا بتقوية نفوذهم ، وملب المطاعة ، في الوقت نفسه ، من الخلفاء العباسيين ، فصارت خلافتهم أمرا دينيا اعتقاديا ، وصار الخليفة رئيسا للإسلام ، ليس له سلطة ملك ، ولا سلطان ، ولا خليفة .

وحظى البويهيون من هؤلاء الخلفاء باللقاب تذكر مع اسمائهم في خطب الجمع ، وتنقش على السكة ، وكلها تشير إلى لقب أمير وملك ، له نفوذ كنفوذ السلطان ، والخليفة . وصار الخلفاء العوبة في أيدي ملوك بنو بويه ، جلسونهم على العرش متى شاموا ، وعزلونهم عن العرش متى أرادت لهم أهواؤهم ، ويقدمون لهم في الوقت نفسه الاحترامات في الحفلات ، وعند استقبال السفراء ، ويضعون أمامهم مصحف عثمان إظهارا لسلطتهم الدينية ، ويلبسونهم بردة الرسول ، ويخاطبونهم بلقب أمير المؤمنين . فالناس كانوا قد صاروا يعتقدون أن الخليفة العباسي هو حقا ظل الله على الأرض ، وإمام الحق ، برغم ضعف الخلافة في عصر إمرة الأمراء وبنو بويه ، فقد استمر للخلفاء العباسيون يولون المهة لأبنائهم ، في احتفالات رائعة ، إذا سمح لهم البويهيون بمن يولونه المهة .

وحدث أن البساسيري البويهي ، أحد قواد بنويه الأتراك ، وكان قد استبد بالسلطة ، في عهد الأمير البويهي الملك : أبو نصر خسرو (فيروز الرحيم) ، راح يدعو على منابر بغداد ، نحو من سنة للخليفة المستنصر الفاطمي القشيري ، وعندئذ استنجد الخليفة العباسي العباس والمشرعون : القائم بأمر الله بطفرل بك السلجوقي . فزحف على بغداد ، وانتصر على البساسيري وقتله ، وأنهى صفحة البويهيين بالعراق . وبذلك تحولت تبعية الخلافة الفعلية من البويهيين الشيعة إلى السلجقة السنيين .



لبنى طغرل بك السلجوقي الدعوة ، وتوجه الخليفة القائم بأمر الله في بغداد ممثلاً له ، وملكا على المشرق عام 451 هـ . وقضى على ثورة البساسيري ، داعية الفاطميين في العراق ، وهزم جيشه وقتله ، وحمل رأسه إلى بغداد . وحل الأمراء السلاجقة محل الأمراء البويهيين المقيمين ببغداد . وبقيت للخليفة موارد إقطاعاته المقررة ، التي كان يديرها له وزيره ، وكاتب الإنشاء ، وبقي له ذكر اسمه في الخطبة ، ونقشه على السكة ، وأخذ يقضى وقته هو ومن بعده في ترميم القصور .

وكانت معاملة السلاجقة للسنيين للخلفاء العباسيين أحسن بكثير من معاملة البويهيين الشيعة لهم .

وكان السلاطين السلاجقة يرسلون إلى الخلفاء العباسيين كثيراً من الهدايا النفيسة ، ويتلقون منهم التفويض سلطاناً بعد سلطان ، في حكم البلاد والعباد .

ودامت هذه المودة بين السلاجقة والخلفاء طوال العصر السلجوقي الأول إلى عام 485 هـ 1092 ، إلى أن جاء عصر سنجار السلجوقي وإخوته وصراهم على السلطان والممالك ، ولتصاماتهم وحروبهم مع بعض البعض ، ودام هذا العصر مبهماً وستين سنة ، والخلفاء لا دخل لهم بصراعهم ، وحروبهم ، ولا بنشرهم الفزع في البلاد ، ولا يبالون بفزرو الصليبيين للبلاد الإسلامية في الشام .

وحدث أن دار قتال بين السلطان السلجوقي محمود بن محمد بن ملكشاه سنة 521 هـ والخليفة العباسي التاسع والعشرون المسترشد بالله ، لأن الخليفة تجرأ وقاد بنفسه جيشاً ضد خصمهما "ديس بن صدقة" ، وهزمه هزيمة ساحقة ، وفي هذا القتال بين الخليفة والسلطان محمود هزم الخليفة المسترشد ، لكنهما مالبثا أن تصالحا .

وفي عهد السلطان مسعود اغتال الباطنية الخليفة المعتز شذ بالله بمدينة مراغة سنة 529 هجرية، ثم اغتالوا ابنه للخليفة الراشد من بعده عام 530، وألّت الخلافة إلى الخليفة المقتدى بالله.

وانتهى عصر السلاجقة على يد شاهنشا خوارزم عام 552 هجرية وانتهت مع نهايتهم تبعية الخلفاء العباسيين للسلاجقة فسي عهد الخليفة المقتدى. فقد دعا الخليفة الرابع والثلاثون الناصر بالله أبو العباس أحمد الخوارزميين ليحرروا الخلافة والخلفاء من سيطرة السلاجقة، فراحت ضربات الخوارزمية تتوالى على رأس دولة كانت فتية يوما، هي الدولة السلجوقية، وورث الخوارزميون عرش الامبراطورية السلجوقية من جبال احوال إلى الخليج العربي، ومن جبال الهند إلى حدود الفرات، عدا ولايتي فارس وخوزستان. ودامت هذه الامبراطورية نحواً من مائة عام، إلى أن قضى عليهم، وعلى الخلافة العباسية، في بغداد، اجتياح المغول للشرق الأقصى، ووسط آسيا، وغربها إلى الشام.

ولقد ارتكب الخليفة الناصر بالله خطأ لا يغتفر، فحين رأى الخوارزميين يوشكون أن يحلوا محل السلاجقة ببغداد، بعث برسول إلى امبراطور المغول "جنكيزخان" يدعوه إلى تحرير الخلافة العباسية، والخلفاء العباسيين من الخوارزمية وفرح جنكيز خان بهذه الدعوة، فانتظر حتى سيطر على الصين وما يليها غرباً. ثم زحف إلى وسط آسيا، فاصداً بغداد، فدمر كل الدول، والدويلات، والأتابكيات في طريقه. ودمر في النهاية الخلافة العباسية، وقتل سلفه هولاكو للخليفة العباسي السابع والثلاثين المستعصم بالله سنة 656 هجرية 1258 ميلادية وهو وأهله ومن حوله.

فى تلك الفترات العاصفة اشتدت حركة القرامطة ، برغم مالحق بهم مرارا من هزائم فى عهد البويهيين . وكان الخلفاء الفاطميون يدعمون حركتهم الشيعية الإسماعيلية بالمال وبالتخطيط . وفى العهد العباسى الملجوقى بدأت نهاية القرامطة . وكانوا قد سيطروا مددا متفاوتة على جزيرة العرب ، ومدنا بالشام وجزرا بالمحيط الهندى ، والخليج العربى ، والبحر المتوسط . وكانت نهاية القرامطة فى موقعة الخندق بشمال الإحصاء ، على يد السنين من العرب والملاحقة عام 470 هجرية 1078 ميلادية . وانتهت دولة القرامطة التى ظلت ، أكثر من قرنين من الزمان مصدر رعب وفزع فى المشرق الإسلامى كله . ولا تزال آثار هؤلاء القرامطة باقية إلى اليوم فى البحرين وصان ، وفى تمليم أتباع أخاخان ، وبخاصة الماليين منهم . وكان للقرامطة آراء فكرية ، وكتب ، وكانت لهم قوات برية وبحرية . وكان القضاء عليهم فى عهد الخليفة الثامن والعشرين المستظهر بالله .

وفى تلك الفترات نشأت مذاهب وحركات سياسية ودينية أخرى منها الحركة الدرزية فى الشام ، والنصيرية والنزرية فى فارس وخراسان ، والشام ، والطيبية فى اليمن ، والحشاشين فى جنوبى قزوين والشام وفارس . وكلها حركات شيعية ، كانت تتوسل فى النهاية بالخلافات العقائدية للقضاء على الدولة العباسية ، وما تمثله من حكم أسرة عربية لشعوب وسط آسيا وغربها ، وشعوب الشمال الأفريقى ، ولقد لجأت هذه الأسرة العباسية العربية ، مثلما لجأت الأميرة العلوية العربية ، إلى اتساع دعاة الانفصال ومثيرى الخلافات العقائدية بالشعوبية .

وفى الحقيقة فقد كان هؤلاء وهؤلاء يهدفون فى الجوهر المعلن ، وغير المعلن إلى الاستقلال والانفصال . ويقعون فى أخطار الاحتلال لما

حولهم ومن حولهم ، دعما لهذا الاستقلال ، وذلك الانفصال ، فوقع العالم الإسلامي كله ، طوال قترات الخلافات العباسية الفارسية منها ، والتركية ، والبويهية ، والسلاجقية ، في دوائر مفرغة ، ملأى بالصراع وبالثورات وبالحروب وبجمععات الدعاة ، وخرافات القصاصيين ، وأكاذيب المياسيين من هؤلاء الدعاة وكولئك القصاصيين ، إلى أن قضى المغول عليهم جميعا ، في اجتياح تاريخي عاصف .

ومن الغريب والعجيب ، أن يمد ممالك مصر أيديهم إلى الخلافة العباسية المنهارة ، ويأخذوا أبناء من أبناء الأميرة العباسية وينصبوا منهم شخصا للخلافة ، وينالوا منهم البركات ، والتتويجات ، وهم الذين ضربوا المغول والتتار المتحالفين معهم ضربات قاصمة في الشام ، أوقفت مدهم كله في الشام ، ويعيدا عن جزيرة العرب ، والشمال الأفريقي ، عدد هؤلاء الخلفاء عشرة خلفاء إلى أن اجتاح الأتراك العثمانيون العالم المملوكي ، والشمال الأفريقي بأسره ، وحملوا عبء الوقوف وجها لوجه أمام الإمبراطوريات المغولية .

الفصل الثاني

# نظريّة الخلاف

عند الفرق الإسلامية والفلافة للمسلمين



عند الشيعة ، والزيدية ، والخوارج ، وأهل السنة أيضا ، تعنى كلمة الخلافة ، وظيفة الإمامة للمسلمين ، أى أن الحكم الخلافي ديني وديني معاً ، وحكم الخليفة روي وزمني في آن ، إذا لم تكن خلافته خلافة كهر .

والخلاف بين هذه الفرق الكبرى في التاريخ الإسلامي ، يكمن في أن كل فرقة تريد الإمامة ، أى الخلافة ، لنفسها . وعلى طريقتها الاعتقادية هي . وليس على طريقة أخرى سواها ، وبشروطها هي لا بشروط غيرها . وهو خلاف يسقط فكرة الخلافة نفسها بعد الخلفاء الراشدين .



فالشيعة ، على كافة مذاهبهم ، يزعمون أن الخلافة لو الإمامة ليست من مصالح العامة ، التي تفوض إلى نظر الأمة ، وأنها ركن الدين وقاعدة الإسلام ، وأنها وراثية (بعد رسول الإسلام) لعلي بن أبي طالب وذريته إلى يوم الدين . وهذه الذرية العلوية ، هي التي تعين الإمام من بين رجالها ، ليكون خليفة وإماماً للمسلمين .

والإمام عند الشيعة معصوم من الكبائر والصغائر معاً ، وعلى الأمة كلها أن تلتزم له بالسمع والطاعة . والشيعة بهذا الاعتقاد ، وجلهم فارسيون ، يكشفون عن نزعة فارسية تقول بالملك الوراثي للحكم ، ويرون أن الخلافة قد أخطأت طريقها بعد النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى علي ، وأن أبا بكر وعمر وعثمان (رضه) قد أخذوها من علي بغير حق ، فعلى هو الوصي لرسول الإسلام ، بل إن بعض فرق الشيعة يفضلون علياً على محمد ، وبعضها ، مثل "الكيسانية" يقول (والعياذ بالله مما يقولون) بالرواية إمام آل البيت ، أى بيت علي ، وبعضها يقول بأن أى إمام علوي هو بذاته شخص مقدس !!

والفرقة الشيعية الوحيدة المعتنقة ، والأقرب إلى أهل السنة والجماعة ، هي فرقة "الزيدية" فهي فرقة تكفي بجعل منزلة الأئمة أفضل من منازل كل الناس ، وفوقهم ، ودون منزلة رسول الإسلام ، بل إن الزيديين يجيزون إمامة المفضل ، على إمامة الفضل ، أي من غير ذرية علي ، مثل أهل السنة (في مرحلة تاريخية متأخرة) على أن يختار أهل الحل والعقد (أي الصفوة) هذا المفضل إماما لهم ، حتى ولو لم يكن قرشياً ، بشرط أن يكون هذا المفضل ، ورعا ، وتقيا ، وعالما ، وسخيا في العطاء طبعا (هل يفترض هذا الشرط غذاء الشخصى أو تصرفه في بيت المال العام على هواه؟).

ولقد وصل عدد الفرق الشيعية إلى أكثر من اثنين وسبعين فرقة ، يكفر بعضها بعضا ، وتضطهد كل فرقة منها أتباع الفرق الشيعية الأخرى ، وكافة الفرق غير الشيعية أيضا. وكان الشيعة "الباطنيون" من أخطر هذه الفرق الشيعية المكفرة للآخرين من الأمة بأسرها ، للشيعة منهم وغير الشيعيين. والشيعة "الباطنيون" هم المعروفون في التاريخ الإسلامى باسم "الحشاشين" فقد كانوا يعتقدون أن أئمة الشيعة الباطنية يتلقون فيضا إلهيا من المعرفة ، وأن معرفتهم فوق مدارك الناس المحدودة بالزمان والمكان ، وأنه لا يلزم أن يكون الإمام ظاهرا معروفا ، فيصح أن يكون خفيا معتورا ، ومع ذلك تجب طاعته (فيما ينقل عنه) ، ويعتقدون أن الإمام الباطنى ليس مسئولا أمام أحد من الناس ، وليس لأحد من الناس أن يخطئه أو يعارضه ، أو يحاوره ويجاذله.

■

والخوارج ظهروا أول ما ظهروا من القبائل الربيعة العربية ، في جيش على في موقعة صفين ، وصار شعارهم منذ قبولهم ، وقبول علىي للتحكيم تحت ضغطهم: "لا حكم إلا لله" (الشعار نفسه ترده نحل الجماعات الإسلامية في زماننا). ولقد حكم الخوارج على أنفسهم بالذنوب بعد فشل التحكيم ، وتابوا عنه وأنكروه وطالبوا عليا بأن يحكم على نفسه أيضا بالذنوب ، والتوبة عنه وإنكاره. وأخذوا يقتلون عليا بعد أن كانوا يكتفون بمجادلته في حدة وعصية ، شأن المتعصيين جميعا من أصحاب العقائد ، الذين يعتقدون أنهم وحدهم على الطريق الحق ، وأن وجهة نظرهم في الدين هي الصراط المستقيم ، ومن حاد عنه فقد كفر ، ولقد استهوتهم فكرة



التبرؤ من عثمان ، ثم من علي ، وهما من خلفاء النبوة ، فواصلوا تبرؤهم من خلفاء القهر من بنى أمية ، وخلفاء القهر من العباسيين .

ولقد امتد هذا الصراع بين الخوارج وعلي والأمويين بعد علي ، والعباسيين بعد الأمويين ، نحواً من ثلاثمائة علم ، وكان صراعاً دامياً مسيق فيه للذبح فقراء هؤلاء وهؤلاء ، متعصبين كانوا أو خير متعصبين .

والخوارج كانوا يرون أن الخليفة الإمام المختار من الأمة ، يستمر إماماً للأمة ، ما دام قائماً بالعدل ، مقيماً للشرع ، مبتعداً عن الخطأ ، فإن حاد بخطأ لم يقب عنه وينكره ، فالويل له ، ويجب عندئذ عزله ، لو قتله ، وكانوا يرون أن الخلافة في الشرع (شرعهم طبعاً) جائزة لا واجبة ، فالتاس إذا لم يكونوا بحاجة إلى خليفة ، وكانوا قادرين على تنظيم أنفسهم ، وتندير أمورهم ، بأنفسهم بدون خليفة ، فليصوا ملازمين شرعاً بأن يكون لهم خليفة ، ولا يجب عليهم اختيار خليفة إماماً إلا إذا دعت إلى ذلك مصلحة عامة ، وحاجة ضرورية ماسة .

والخوارج . مثل الشيعة والفقهاء ، وطماء الكلام ، آراء أخرى في مجال الاعتقادات ، ليس هنا مجالها .

■

وجمهور جماعة المسلمين ، ماساة وفقهاء ، من المعروفين بأهل السنة ، أخذوا حيال قضية الخلافة ، بسياسة وفكر الأمر الواقع ، المتنـسـير ، حين تغلب الأمويون على الخلافة في حياة علي ، وحين نقض معاوية عهداً للحسن بن علي ، فلم يترك الأمر شورى من بعده ، وفرض البيعة لابنه يزيد ، وحين تغلب العباسيون على الخلافة بحد السيف بعد الأمويين ، وحين أعلن الشيعة الفاطميون الخلافة بحد السيف في مصر والشام ، وشاركوا العباسيين في الخلافة ، فكانت هناك خلافتان في العراق ، ومصر ، وحين أعلن الأمويون الخلافة الأموية مرة ثانية في الأندلس والمغرب ، فشاركوا العباسيين في الخلافة ، فكانت خلافتان في العراق والأندلس .

ولقد انقسمت آراء فقهاء أهل السنة ، بسبب تعدد الخلفاء ، وراحوا يتناقشون حول : هل يجوز اجتماع خليفتين في وقت واحد ، فتتفرق بذلك وظيفة الإمامة الروحية ، على الأقل في الأمة الواحدة . وقبل بعض الفقهاء تعدد الخلفاء لاتساع أقطار الأمة ، وتغلب حكام الأطراف على أقطار الأطراف . وأدان بعض الفقهاء هذا التعدد ، وغلّبوا على أمرهم بسياسة

الأمر الواقع، المتغير. ونعى هؤلاء وأولئك، أن هذه الخلافة لو تلك ، هي خلافة قهر قرشية ورثية ، وقد جمعت باطلا بين السلطتين الزمنية والروحية.

ونعى هؤلاء وأولئك ، أن هؤلاء الذين حكموا دولاً بإطراف العالم الإسلامي، من سلاطين ، وملوك ، وأمراء ، قد جمعوا بدورهم ، مع أنهم لم يعملوا لأنفسهم أئمة أو خلفاء، بين السلطتين الزمنية والروحية ، وفق مذاهبهم المتغلبة الشيعية أو السنة في وسط آسيا ، مثلما حدث في المغرب الكبير وجنوب الجزيرة.

•

وسياسة القبول الفقهي لفقهاء أهل السنة ، بالأمر الواقع ، المتغير ، هي نفسها التي قبلت طرزا آخر من الخلافات القهرية ، غير القرشية ، من الموحدية ، والحفصية ، والمرينية ، والعثمانية ، الذين تلقبوا بلقب أمير المؤمنين مثلما تلقب بها خلفاء الشورى ، وخلفاء القهر القرشيين السنيين أو الشيعيين. فبوركت من الفقهاء خلافات قهر غير قرشية ، فلا بد للناس من إمام يقيم بالناس صلوات الجمع، ويجمع منهم للزكوات، ويحصى الثغور، ويفصل بين الناس في الخصومات ، بتعيين القضاة ، وتوحيد الكلمة ، وتنفيد أحكام الشرع، ولم التفت ، وجمع المتفرق ، ويقيم للمدينة الفاضلة (111) التي حث الإسلام على إقامتها . ومقط بما قالوه ، في مسيرة التاريخ شرط القرشية في الإمامة والخلافة . وبقيت لها شروط البيعة والشورى ، والعدالة. فهل بقيت هذه الشروط حقا في خلافة القهر ، قرشية كانت أو غير قرشية؟

لقد فقدت "البيعة" معناها في حصور خلفاء القهر جميعها، لأنها صارت منذ العهد الأموي ورثية ، يجبر فيها الناس على البيعة ، والطاعة، والبيعة من أهل الحل والعقد لولا ، من الفقهاء ، والأعيان، ثم من مآثر الناس .

ولقد اخترع الحجاج الثقفي في أخذ البيعة للخليفة الأموي ، أن يقول الناس وهم يبايعون : "عبيدي أحرار ونسائي طولق، إن خرجت عن طاعة الخليفة مطلقا". ولقد منع أبو جعفر المنصور "العباسي" الإمام مالك أن يفتي الناس ، بأنه ليس لمستكره (على البيعة) يمين ، ولا طلاق لمكوه، حين اتهم الناس أبا جعفر بأنه قد أخذ البيعة كرها ، حتى لا يكون ذلك

مبيلا لتحل للناس من بيعتهم للخليفة، وتمردهم على القسم الذى يقول:  
عبيدى أحرار ، ونسألى طولق.

ولقد فقت "الشورى" فى خلافت القهر معناها ، فلكي تكون ثمة  
شورى فى أمور الحكم كلها، فلا بد أن يكون الاختيار للخليفة الحاكم  
شوريا، أى اختياريا، فلا يمكن أن يجتمع معاً كـون الخلافة شورية،  
وكونها وراثية ، ويحد السيف ، فالوراثة وحد السيف نقيضان للشورى  
والاختيار الحر.

ولعل أبلغ ما قيل فى خلافة القهر ، ما قاله الحسن البصرى، فى  
حكم معاوية: "أربع خصال. فى معاوية ، لو لم تكن فيه إلا واحدة لكأنت  
موبقة (أى مهلكة): خروجه على هذه الأمة بالسفهاء حتى ابتزها  
(أى الخلافة) بغير مشورة منهم ، واستخلفه يزيد (ابنه) وهو مكبر خمير ،  
يأبى الحرير ، ويضرب بالطنابير ، وادعاه زبدا، وقد قال النبى : "الولد  
للغراش وللمعاهر الحجر"، وقتله حجر بن عدى. ولقد قال عمر بن الخطاب  
فى وجوب أن تكون الخلافة عن مشورة واختيار : "من بايع رجلا بغير  
مشورة المسلمين فلا يبايع هو ولا الذى يليه".

ولقد فقت "العدالة" معناها فى خلافت القهر ، فالعدالة تطلب من  
الحاكم أنواعا من العدالة : أن يكون هو عدلا فى ذاته ، لا يؤثر قرابة ،  
ولا يقدم أحدا لهُوى أو محبة ، ولا يؤخر أحدا لبعضه له، وأن يولى  
الأمور لأهل العدالة ، والفرق بالرعية ، وأن يعامل الأعداء بالعدل ،  
فالعدالة تعم ولا تخص ، وأن يطبق العدل على الجميع ، أغنياء، وفقراء ،  
وأقوياء، وضعفاء، ولأه ولا غير ولأه.

\*

وقتها الجماعة لهم آراء مختلفة فى الحاكم ، خليفة كان أو غير  
خليفة ، إذا خرج عن شروط الحكم ، قرشيا أو غير قرشى ، وهى البيعة،  
والشورى ، والعدالة ، فالفقه والشافعى ، وابن حنبل، يسقطون الخلافة  
النبوية، أى خلافة الدين والدنيا ، أى خلافة الجمع بين السلطتين الزمنية  
والروحية ، عن خلفاء القهر، والحاكمين غير للخلفاء، فملكهم ملك دينوى  
فحسب، وإن ارتدى عبادت الخلافة ، فهم مستخفون فى الأرض، يخلفون  
حكما قبلهم سابقين ، وليمسا خلفاء نبوة. وذلك يعنى فيما يؤمنون إليه  
ويشيرون ، أن خلافة الدين والدنيا ، والجمع فيها بين السلطتين الزمنية

والدينية مقصورة فحسب على خلفاء النبوة الراشدين، وليست حقاً لأى حاكم آخر.

ومالك والشافعى وابن حنبل يوجبون الطاعة للحاكم ، والمتغلب ، حتى ولو كان غير قرشى ، وحتى لو كان ببيعة إكراه ، أو بلابيعة ، ولا يأخذون بالشورى بشرط واحد ، أن يقيم هذا الحاكم العدل فى الرعية فإذا لم يقمها ، فعلىنا أن ندعو لهم بالتوبة ، وندعو لأنفسنا بدفع مضرتهم عن الأمة، اللهم إلا إذا أمروا بمعصية ، حتى لا تكون الفتنة ، ويكون التفرق، وتمزق الأمة، وقتل المسلمين للمسلمين ، فما نسميه اليوم بالحروب الأهلية.

• • •

إلى القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي، تجنب الفقهاء، والفلاسفة والأخلاقيون، الخوض في مسألة الخلافة نظرياً، وعملياً، تاركين الحديث فيها للفرق والطوائف الإسلامية المتصارعة، والمطالبة بالحكم لنفسها، من القرشيين وغير القرشيين، ومن العرب وغير العرب. تجنبوا الحديث في مسألة الخلافة في عصر الدولة الأموية، وفي العصر الفتي الأول للدولة العباسية. ولكنهم بدأوا الحديث في مسألة الخلافة من الوجهتين النظرية والعملية، في عصر انحلال الدولة العباسية، وهو العصر الذي بدأ باغتيال الخليفة العباسي العاشر المتوكل على الله. وهو عصر استمر أربعة قرون تقريباً، على حين لم يستمر العصر العباسي الفتي سوى مائة وعشرين سنة.

ومن تحدث في مسألة الخلافة كان أكثرهم من فقهاء المسلمين ومؤرخيهم. فقد فقد الخلفاء سطوتهم. وفقدت الخلافة هيبتها، وصارت خلافة اسمية، منذ أن سيطر عليها الخلفاء البويهيون ثم السلاجقة. وظهر الحديث في موضوع الخلافة في عهد السلاجقة، وكانت أطراف الامبراطورية العباسية، قد تقاسمها أصحاب البلاد في هذه الأطراف، أو جيرانهم وكانت الشعبية قد نجحت في أن تفرض نفسها فرضاً على دولة الخلافة الإسلامية الموحدة على سطح الأرض، والبراكين من تحتها تغلي.

وغريق من الفلاسفة والأخلاقيين الذين تأثروا بعلوم اليونان، وفلسفة اليونان، وبخاصة فلسفة أرسطو وأفلاطون، تحدثوا في موضوع الخلافة الإسلامية. وأول فيلسوف مسلم تحدث في هذا الموضوع كان الفارابي، القادم إلى حلب من وسط آسيا، والذي عاصر مصيف الدولة الحمداني سيد حلب، واتصل به اتصالاً وثيقاً.

وجاء حديث الفارابي عن الخلافة الإسلامية ، متلثرا بفلسفة أفلاطون في جمهوريته ، فتحدث عنها نظريا ، كتولة تعتبر مثلا أعلى عند الفلاسفة ، وقد أفرد في كتابه "أراء أهل المدينة الفاضلة" ، بابا عن "القول في العضو الرئيسي" ، استغرق إحدى عشرة صفحة ، والعضو الرئيسي في مدينته الإسلامية ، هو في الحرف الإسلامي للخليفة والإمام ، وكلاهما وجهان أو لقبان لرئيس واحد.

وكان حديث الفارابي عن هذا الرئيس حديثا نظريا ، فالدولة عنده تشبه نظاما متعدد الدرجات ، والدولة المثالية في نظره يشرف عليها زعيم ، إمام أو خليفة ، أو هما معا في شخص واحد ، لكنه زعيم يعرف ما هي السعادة الحققة ، زعيم يهدي الإنسان إلى هدفه ، فبدون هذه الهداية لا يستطيع الإنسان أن يهتدى ، أو يصل إلى هدف .

ورأى الفارابي في هذا الموضوع رأى نظري ، لا يطبق على الخلافة إلا من الناحية النظرية فلسفيا ، ومن وجهة النظر دينيا . متجاهلا الحالة السياسية التي كانت ترين على العالم الإسلامي في زمانه الذي يعيش فيه ، وغافلا عن تاريخ الخلافة ، وأحوال الخلفاء (الزعماء) منذ عصر الخلافة الأموية .

وأخوان الصفا ، أبدوا وجهة نظرهم النظرية في مسألة الخلافة ، فقالوا إن الملوك خلفاء الله في الأرض ، وإن الملك (الخليفة) حارس الدين ، وحارس الرعية . ويحملها على الإذعان لأحكام الدين ونواهيها ، وهي نظرة تتفق مع النظرية الإسلامية العامة المعتمدة عن الخلافة .

ونظام الملك وزير السلطان ملكشاه الملجوقي ، تناول موضوع الحكومة للخلافة ، في كتابه سياسة نامه ، وقد كتبه في أواخر القرن الخامس الهجري لبحث مسألة إصدار الأحكام ، وإدارة الدولة .

وشهاب الدين المهرودي ، للفيلسوف الأخلاقي الذي عاش في هذا القرن نفسه ، تثر بما كتبه أفلاطون في جمهوريته عن الزعيم (الخليفة) .

ونصير الدين الطوسي العالم الشيعي ، الذي عاش في القرن السادس الهجري ، الثالث عشر الميلادي ، والذي دخل في خدمة القنري هولاكو ، وحثه على إزالة الخلافة العباسية ، وصحبه في حصاره لمدينة بغداد سنة 566 هجرية 1258 ميلادية ، والذي كان من أبرز الكتاب العلماء

الذين خلفوا لنا مؤلفات في الدين والفلسفة ، والرياضة والفلك ، لم يزد في وصفه للإمام الخليفة ، كحاكم مثالي ، في كتابه "أخلاقي ناصري" ، عما فعله أفلاطون وأرسطو من قبله ، والفارابي من بعدهما . وهو وصف نظري . لم يزع تاريخ الخلافة والخلفاء ، ولم يتوقف عند الجانب العملي في الخلافة .

وابن خلدون عالم الاجتماع والمؤرخ ، والذي عاش إلى أوائل القرن التاسع الهجري ، الخامس عشر الميلادي ، رأى أن الخلافة تطورت وتحولت ، منذ العصر الأموي ، عما كانت عليه في صدر الإسلام ، ولم يكن عنده من بأس في أن يكون للخليفة من أصحاب العصبة ، الأموية أو العباسية ، أو أية عصبية أخرى ، أيا كانت جنسية هذه العصبية ، قرشية أو غير قرشية ، فالإسلام في جوهره لا يفرض هذه العصبية القرشية على المسلمين .

والعجم ابن خلدون برأيه هذا مع روح عصره تماما ، فقد رأى أن الخليفة العباسي الذي آل أمره إلى أن يكون خليفة بالاسم ، ورمزا للإمامة ، قد صارت به الخلافة خلافة صورية ، حين فقد عصبية التي يستند إليها . ولذلك قرر ابن خلدون نظريته وهي أن الخليفة يجب أن يكون من أهل العصبية المطلقة .

وبهذه النظرية اختلف ابن خلدون مع جمهور السلة في زمانه الذين كانوا يرون حصر الخلافة في قریش ، واختلف مع الشيعة الذين يريدون قصر الخلافة أو الإمامة في أسرة الرسول ، بل في بيت علي وأبنائه من بعده ، واختلف مع الخوارج الذين كانوا يرون أن الخلافة حق لكل عربي حر ، مسلم ، عادل ، واختلف مع المعتزلة الذين قالوا إن الإمامة اختيار من الأمة ، سواء أكان المرشح للمختار قرشياً أم غير قرشي . واختلف مع ابن حزم الذي عاش في القرن الخامس الهجري ، الحادي عشر الميلادي ، والذي جعل القرشية شرطاً أساسياً أول في الإمامة .

فالأساس عند ابن خلدون هو العصبية التي يستند إليها الخليفة ، أو الإمام ، ولم يجز ابن خلدون خلق الإمام الخليفة إذا ظلم ، إلا إذا امتنع عن نصيح المسلمين له ، وقاوم منع المسلمين إياه من الظلم .

والفقيه الأخلاقي الذي تعرض لمسألة الخلافة ، حين سيطر البويهيون على الخلافة، الذي عاش في أواخر القرن الرابع الهجري، والقرن الخامس الهجري، هو أبو الحسن علي الماوردي ، في كتابه "الأحكام السلطانية" . وقد بحث بدوره في الخلافة بحثاً نظرياً ، متجاهلاً حوادث الخلافة والخلفاء التي وقعت في عصره وقبل عصره ، والتي أثبتت فشل النظام الخلافي طوال خمسمائة عام (وتأكد فشلها في الخلافات التي عاصرت الخلافة العباسية) . وقد راح الماوردي يسرد في كتابه تاريخ البيعة للخلفاء الراشدين ، ويسرد شروط أصل الإمامة ، ومن بينها أن يكون الإمام الخليفة قرشياً ، وواجبات الخليفة الدينية والقضائية والحربية ، وقد تجاهل الماوردي أحوال الخلافات: الأموية والعباسية والفاطمية ، ومن الغريب أن يؤكد الماوردي أن مركز الخليفة (وهو خليفة قهر) مركز انتخابي .

والوحيد الذي أعلن في وضوح رأيه ، فيما آل إليه أمر الخلافة العباسية هو البهروني، حين قال في كتابه "الآثار الباقية من الأمم الخالية": إن الخليفة لم يبق له من الأمر شيء ، اللهم إلا ما كان متعلقاً بالدين وحراسته . وقد عاش البهروني في ظل للدولة السامانية ، ثم الدولة الغزنوية ، في القرن الخامس الهجري ، وكانت الخلافة العباسية قد صارت خلافة اسمية ، يلتصق حكام دول الأطراف منها الاعتراف والبركات ، مثلما كان ملوك أوروبا يلتصمون هذا الاعتراف وتلك البركات من بابا الفاتيكان .



الفصل الثالث

مصارع خلفاء القصر ووزرائهم



عدة خلفاء بنى أمية في دمشق، كانت أربعة عشر خليفة: معاوية الأول ابن أبي سفيان، ويزيد الأول بن معاوية ؛ ومعاوية الثاني بن يزيد الأول، ومروان بن الحكم، وعبد الملك بن مروان ، والوليد الأول بن عبد الملك، وسليمان بن عبد الملك، وعمر بن عبد العزيز ، ويزيد الثاني بن عبد الملك، وهشام بن عبد الملك ، والوليد الثاني بن يزيد الثاني بن عبد الملك، ويزيد الثالث بن الوليد الثالث، وإبراهيم بن الوليد الثالث، وآخرهم كان مروان بن محمد، وكانوا جميعا بين أبناء خلفاء ، أو إخوة خلفاء ، أو أحفاد خلفاء.

وخليفتان منهم كان أمرهما عجبا ، بين خلفاء بنى أمية : أولهما معاوية الثاني بن يزيد الأول، الذي بويع خليفة ، وهو صبي مريض ، فأبى على نفسه وعلى الناس أن يكون خليفة ، وكان صادقا مع نفسه ، وحاول ترشيح رجل للخلافة بدلا منه، مثلما فعل أبو بكر ، وحاول ترشيح ستة يختارون من بينهم واحدا ليكون خليفة ، مثلما فعل عمر بن الخطاب ، لكن أمرته أبت عليه ذلك، فصعد المنبر يوم الجمعة بكبرا ، وأدان جده معاوية ، وأباه يزيدا الأول ، قائلا: "يا أيها الناس إن جدي معاوية نازع الأمر أهله، ومن هو أحق به منه لقرابته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو على بن أبي طالب، وركب بكم ما تعلمون حتى أقتله منيته، فصار في قبره رهينا بذنوبه ، وأسيرا بجرمه". وظل معاوية الثاني يبكي حتى جرت دموعه على خديه ثم قال : "وقد قتل أبي عثرة رسول الله صلى الله عليه وسلم (يقصد الحسين) وأباح الحرم ، وخرب للكعبة ، وما أنا بالمقلد ولا بالمحتمل تبعاتكم، فشأنكم وأمركم، والله لأن كلفت الدنيا خيرا لقد نلتا منها حظا، ولئن كانت شرا فكفى ذرية أبي سفيان ما أصابوا منها. ألا فليصل بالناس حسان بن مالك ، وشاوروا في خلافتكم يرحمكم الله".

ودخل معاوية الثاني منزله، وتغيب حتى مات في مسننه ، بعد أيام ، ولم تتم خلافته سوى أربعين يوماً ، وعقدت نقلت الأسرة الأموية الخلافة من فرع أبي سفيان إلى فرع آخر من بني أمية ، هو فرع أبي العاص ، فكلفت الخلافة من نصيب مروان بن الحكم .

والخليفة الأموي الثاني العجيب للشان والأمر ، كان هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم ، الذي أشبه في خلافته عند الناس خلافة جده لأمه عمر بن الخطاب في عدله وزهده . فقد أوقف عمر هذا سب على وآل بيته في خطب الجمع على كل المنابر الإسلامية . ورفع الجزية عن أسلم من أهل الذمة ، وكان من قبله لا يدفعونها عنهم بعد إسلامهم ، طلبا لغنى بيت المال . وخفف الضرائب عن عامة المسلمين ، وبخاصة عن الموالى من الفرس ، واسترد الإقطاعات الممنوحة من خلفاء القهر ، لأمرأى بني أمية وولاتهم ، وصالحهم ، وردوا إلى بيت المال ، فصارح الناس من كافة الأديان إلى الدخول في الإسلام ، في سائر الأمصار القريبة أو البعيدة . وأوقف الحروب والفتوحات ، ليستقر الإسلام في البلاد التي دخلها . وغير الولاة الظالمين بولاة صالحين . وراح يؤثر المصالح العامة على المصالح الخاصة . وكان شعاره : "لن الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم هاديا ، ولم يبعثه جابيا" .

وراح بنو أمية يسبون عمرا هذا لحرمانهم من إقطاعاتهم ، وإنقاصه لمعاشاتهم حتى جعلها مثل عامة الناس .

ولكن عهد عمر كان قصيرا ، فلم يزد على سنتين و7 أشهر . ويقال إن بني أمية تخلصوا منه بالسهم ، مثلما تخلصوا من معاوية الثاني .

ولكن الناس من بعده توجوه مكافئة كبرى ، فجعله بعضهم ثالث الخلفاء الراشدين بعد أبي بكر وعمر ، وجعله بعضهم خامس الخلفاء الراشدين ، حتى العباسيون الذين جاءوا بعد بني أمية ، أجلوا ذكر عمر بن عبد العزيز ، فلم ينبشوا قبره ، مثلما فعلوا بقبور كل الخلفاء الأمويين . ولقد ظل الناس عدة قرون ، يزورون قبر عمر بن عبد العزيز ، ويقراون له الفاتحة ، وكان عمر ثلاثي لثتين نجيا عند الناس في محكمة التاريخ ، وعند الله في شرح الله .

وأربعة من خلفاء بني أمية ، لقوا مصارعهم قتلى ، أولهم : مروان بن الحكم ، فقد قتلته زوجته خنقا بوسادة كتمت بها أنفاسه ، لأنه

نقضبيعة الناس له ، على أن يكون ابنها خالد بن يزيد الأول بن معاوية خليفة من بعده ، ولكنه أخذ البيعة من الناس لابنه عبد الملك ، ولم يجزؤ ابنه عبد الملك من بعده ، على قتلها حتى لا يقول الناس إن امرأة قتلت أباه ، فيلحق به العار .

وثانيهم : الوليد بن يزيد بن عبد الملك لإعضائه أكابر أهل بيته والإساءة إليهم ، فاجتمعوا عليه ذات ليلة بالسيوف ، وأحس بهم ، فلحق بغرفته ، وفتح المصطف ، وقال يوم كيوم عثمان بن عفان ، وتقدم إليه ابنه يزيد بن الوليد هذا وقتله . ولم تزد خلافة يزيد هذا عن خمسة أشهر .  
وثالثهم : إبراهيم بن الوليد ، ولم يحترمه بنو أمية ، ولا الناس ، فكانوا يسلمون عليه مرة بالإمارة ، ومرة بالخلافة ، وخلعه مروان بن محمد ، فهرب إبراهيم من دمشق ، ولكن مروان طارده وقتله وصلبه ، ولم تزد خلافته على شهرين .

وتولى مروان بن محمد الخلافة من بعده وكان آخر خلفاء بني أمية ورابع الخلفاء الذين لقوا مصارعهم قتلا ، فالفتن كانت تتجمع من العرب والموالي من اليمانيين والشيعية والخوارج والعباسيين ضد بني أمية ، فخلع وطورد وقتل ، واستوصلت من بعده شافة بني أمية القاتلين والمقتولين .

خلافة القهر الهاشمية العباسية عاشت طويلا فى العالم الإسلامى . عاشت عمرا لم تعشه خلافة إسلامية ، ولا دولة إسلامية ، أخرى . عاشت خمسمائة وخمسة وعشرين عاما فى المشرق الإسلامى ، وتولى الخلافة فيها سبع وثلاثون خليفة ، كلهم كانوا من بنى العباس ، وأكثرهم كانت أمهاتهم من الموالى ، ولم يكن بينهم هاشمى الأب والأم سوى الخليفة السادس الأمين ابن هارون الرشيد .

ومرت هذه الخلافة بثلاثة أطوار : طور الشباب أو طور الاستقلال فى عهود تسعة خلفاء خير راشدين : أبو العباس السفاح ، فالمنصور ، فالمهدي ، فالهادي ، فالرشيد ، فالأمين ، فالمامون ، فالمتصم ، فالواثق . وسيطر هؤلاء الخلفاء التسعة على التاريخ الإسلامى ثمانية وتسعين عاما من عام 750 ميلادية إلى عام 847 ميلادية .

وطور الكهولة أو طور الخضوع لقادة الجيوش الأتراك خارج القصور العباسية ، وللنساء داخل هذه القصور ، فى عهود خلفاء ثلاثة عشر خليفة غير راشد ، هم : المتوكل ، فالمتنصر ، فالمتعمم ، فالعزل ، فالمتدي ، فالمتعمد ، فالمتضد ، فالمتكى ، فالمتدر ، فالقاهر ، فالراضى ، فالمتكى ، فالمتكى . وأضيف إلى ألقابهم جميعا لفظ " بالله " ، مثلما فعل قبلهم كل من الخلفتين : المتصم ، والواثق .

وقد سيطر قادتهم العسكريون الأتراك ، أو ملابهم الحقيقيون ، على وجه التاريخ الإسلامى بأسهم طول تسعة وتسعين عاما من عام 847 الميلادى إلى عام 946 الميلادى .

وطور الشيخوخة أو طور التبعية المحتلون من البويهيين فالسلجوقيين فالخوارزميين ، ثلاثة مائة عام ومئة أصول من عام 946 الميلادى إلى عام 1252 الميلادى ، وفى عهود خلفاء بالاسم وبالرمز بلغ عددهم خمسة عشر خليفة غير راشد ، هم : المستكى ، والمطيع ،

فالمطامع، فالقادر، فالقائم، فالمعتدى، فالمستعصر، فالمعتزى، فالراشد، فالمقتضى، فالمستجد، فالمستضى، فالناصر، فالظاهر، فالمستعصم .  
والحق بأسمائهم جميعا لفظ "ياش" ، مثل سابقهم، فقد كانت تعرض عليهم حين توليهم الخلافة قائمة بأسماء فاعلين من أعمال مختارة ، ليختاروا منها اللقب الذى يريدونه، أموة بالخليفتين المعتصم ، والولثق ، منذ أن سيطر الأتراك على الخلافة سيطرة تامة، مع بداية عهد الخليفة المتوكل "بالله".

ولقد زخرت حياة معظم هؤلاء الخلفاء بإخلاف الوعد، والنقض للعهد، والغدر بمن نال الأمان، وفتاوى ساقها لهم بعض الفقهاء، وساقوا معها المبررات التى ترضى هؤلاء الخلفاء ، وتحقق لهم غايتهم : إخلاف الوعد ، ونقض العهد، والغدر بمن أسطوه الأمان.

وزخرت حياة معظم هؤلاء الخلفاء بقتل كتاب ، ووزراء وأمراء ولايات ، وقادة جيوش، كلوا لهم أعوانا ، وتغيرت سياستهم ونقلت فلم يعولوا بحاجة إلى أحد منهم ، عربا ، أو فرسا ، أو تركا .

ونال كثير من خلفاء بنى العباس، فى الطورين الأولين، مصارع من مصارع الخلفاء، والسلطين، والأمراء ، فى الدول الإسلامية ، على يد ابن، أو طامع طموح فى الخلافة ، أو متامر من متامرى بلاطات القصور ومتامراته: أما أو جارية ، أو قائدا تركيا، أو أميرا على ولاية .

ولم تتوقف مصارع الخلفاء، إلا بعد أن صاروا تابعين لمحتل غاز ، بويهى ، أو سلجوقى، أو خوارزمى، فقد كان الخلفاء فى عهد الاحتلال ، مطيعين ، يكتفون بما يمنح لهم من مخصصات ، وبما يتاح لهم من فرص لمنح الأمراء والسلطين الفزاة البركات ، ووضع التيجان على الرموس ، ومنح الأيدي سيوفا ذهبية من سيوف الخلافة .

مات منهم على فراشهم ثلاثة وعشرون خليفة ، وقتل أربعة عشر خليفة، وهم: الخليفة الثالث المهدى، له أربعون سنة، وولى الخلافة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، وقاد جيشا قضى به على ابن عبد الجبار الأزدي وإلى خراسان وعمره خمس عشرة سنة. وقضى فى خلافته بقسوة على الزنادقة، والخوارج ، وعلى فتنة عبد الله بن مروان بن محمد الأموى ببلاد الشام، وفتنة عبد السلام اليشكرى بالجزيرة ، وبالعين التميمى بالموصل، وأهل الحوف بمصر ، بالقرب من بلييس .

وقد دامت خلافة المهدي عشر سنوات. وبسط يده فى العطشاء على عكس أبيه. ولقى المهدي مصرعه، بسبب مسم وضعته جارية فى طعام لجارية أخرى ، فكل من المهدي . ويقال إنه قتل أثناء مطاردته لظبية فى أخراش ، فدخل بفروسه وراءها ، فشق باب حرش خرب. فقطع ظهره ، فمات من ساعته . وكان قد ترك الخلافة من بعده لابنه الهادي، ثم لابنه هارون الرشيد من بعده.

والخليفة الرابع الهادي بن المهدي ، كان قاسى للقلب، شرس الأخلاق صعب المراس، مثل جده المنصور، فراح يكل بالعوليين ، ويواصل التمثيل بالزنادقة والخوارج ، ويأخذ أكثرهم بالظنّة والريية . وكان قد عزم على خلع أخيه هارون من ولاية العهد، وتوليته لابنه جعفر، مثلما فعل جده المنصور مع عمه صهي . فراح يضيق على أخيه هارون ويضطهده، ويدفع رجال بلاطه للحط من شأنه، فلجأ هارون إلى العهد عن أخيه بالمنفر طلبا للصيد ، وطال غيابه فى رحلات الصيد ، فراح الهادي يدعو مرار ليعود إلى بغداد ، حتى يتمكن من دفعه لقلع نفسه، لكن هارون لجأ إلى اقتحام الأضار ، إلى أن جاء نعيه. فعاد إلى بغداد مسرعا. وكان الهادي مسرعا مثل أبيه فى العطماء، شديد الغيرة على النساء إلى درجة دفعته إلى إلزام أمه الخيزران بالاحتجاب عن الناس ، بعد أن كانت تأمر وتنهى . ويقال إن هذا الحجب، وكراهية الهادي لأخيه هارون هو الذى دفع أمه لقتله بالسم . ولم تطل خلافته سوى سنة ، وشهر ، واثنين وعشرين يوما .

والخليفة السادس الأمين بن هارون ، كان للخليفة الوحيد الهاشمي الأب والأم، وكان عهده مليئا بالفتن والاضطرابات فى بلاد الشام على يد على السفهاني ، وبين اليمنيين والمضريين وبين الخراسانيين والعرب، وبينه وبين أخيه المأمون، وقد قتل الأمين على يد الجيش الخراساني العلوي لأخيه المأمون، لأن الأمين بادر بخلع أخيه المأمون ، وتولية ابنه موسى وليا للعهد من بعده، وأرسل عبد الله بن طاهر قائد جيش المأمون رأس أخيه الأمين إليه.

وكان الأمين مسمء للتبذير كثير للتبذير ضعيف الرأي لرعن، ذا قوة عضلية مفرطة، يحب اللهو واللعب، سخيا بالمال، بخيلا بالطعام،



يعشق حياة الترف، ودلمت خلاقه أربعم سنوات ، وثمانية أشهر وخمسة أيام.

والخليفة العاشر المتوكل بالله، تلمز وألى عهده ابنه محمد المنتصر بالله، على قتله مع قلعة الجند الأتراك ، فحضره باخر التركي بالسيف، وهو بدمشق، لأنه عزم على نقل ولاية العهد إلى ابنه الآخر المعتز بالله.

والخليفة الحادي عشر المنتصر بالله قاتل أبيه الخليفة ، قتله الأتراك، لأنه غضب عليهم، وصار يسبهم، ويصفهم بأنهم قتلة الخلفاء ، فأغروا طبيبهم بن طيفور ، وأعطوه ثلاثين ألف دينار ، فقصده بريشة مسمومة فلقى قاتل أبيه حتفه ، وكان فتكا ، سفاكا للدم.

والخليفة الثاني عشر المستعين بالله امتنع عن البقاء في العاصمة سامراء التي كان الخليفة المعتصم (السابع) قد شيدها لنفسه ولجند الأتراك، وأصر على العودة إلى بغداد ، فخلعه الجند الأتراك، وولوا صه المعتز . ونشبت بين الخليفين الحرب. وحين انهزم المستعين بالله في هذه الحرب ، أرسله الأتراك إلى مدينة واسط ليعيش بها منفيا محدد الإقامة بها، في حراسة الجندي التركي أحمد بن طولون ، لكنهم لم يلبثوا أن أرسلوا وراءه سعيد الخادم ، فتعطل في ثلة من الجند، وقتله بنفسه ، خوفا من بقاءه حيا.

والخليفة الثالث عشر المعتز بالله الذي جاء به الأتراك . ثار ضده جلد من جند الأتراك بقيادة بغا الصغير ، فجروه من رجله ، وحبسوه حافيا في ساحة دار، وضربوه بالدبابيس ، ومزقوا قميصه ، وتركوه فترة يعاني حر الشمس على الحصباء ، يرفع رجلا، ويضع أخرى لشدة الحر. ويلطمونه بين الحين والحين ، ثم أدخلوه إلى حجرة.

وطلبوا من أمة قبيحة ثلاثين ألف دينار فداء له ، لكنها أثرت الهرب مع ابنتها من مرداب بلدلار ، ومعها مليون دينار، وجواهر وحلى وزمرد ولؤلؤ وياقوت ، لا يعرف أحد لها قيمة.

ومنع عن المستعين بالله الطعام والماء ثلاثة أيام ، لم يتوقف فيها العذاب ، ثم أدخلوه مردابا . وسندوا بابيه عليه ، فمات عطشا وجوعا في ظلام المرداب.

والخليفة الرابع عشر للمهتدي بالله . ولى الخلافة بعد أخيه القليل بيد الأتراك ، ولم يلبثوا أن ثاروا عليه ، فأسروه ، وخلعوه ، وأنزلوا به العذاب . والخليفة الخامس عشر المعتمد بالله حجر عليه أخوه القائد الموفق بالله ، ومنعه من نزول دار الخلافة ببغداد ، ولأزمه البقاء بسامراء ، فخلع ابنه المفوض بالله من ولاية العهد ، وبيع بالخلافة من بعده للمعتضد بالله ابن أخيه الموفق بالله . ومات فجأة بعد أشهر ، وتولت الإشاعات عن قتله مسموما بيد ابن أخيه .

والخليفة الثامن عشر المقتدر بالله ولى الخلافة وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، خلعه وزيره العباس بن الحسن الذى قلده الخلافة ، وولى عبد الله بن المعتز الخلافة ، فهرب الخليفة المعتذر ، وقبض رجال حاشية المعتذر على ابن المعتز وحبسوه ، وقتلوه بعصر مذاكيره ، ولم يلبثوا أن خلعوا الخليفة المعتذر من الخلافة ، ثم أعادوه ونجحوه وولوا الخلافة القاهر بالله .

والخليفة التاسع عشر القاهر بالله حفر فى داره خمسين مطمورة تحت الأرض ، كفى يلقى فيها بخصومه ، فقبض عليه حرس هذه المطامير الحجرية الخاص ، وحبسوه ، وسملوا عينيه . وتمكن من الهرب من سجنه ، بعد ثلاثة عشر عاما ، ووقف أمام جامع المنصور يتسول العطلة ، فأعيد إلى سجنه ، ومات فيه ، بعد سجن دام ثلاثين سنة فى مطمورة .

والخليفة الحادى والعشرون المستنصر بالله حاول الاستعانة بابن حمدان ، وقلده إمرة الأمراء بدلا من ابن رائق ، فقبض كوزون التركى عليه ، وسمل عينيه ، وخلعه ، وولى بدله المستنصر بالله .

والخليفة الثانى والعشرون المستنصر بالله استقبل البويهيين غزاة بغداد على الأبواب ، وكان الخليفة المستنصر قد دعاهم لدخول بغداد ليقتلوا الخلافة من عثرتها ، ومن تسلط الأتراك ، وسيطرة أمير الأمراء . لكن معز الدولة البويهى لم يلبث أن أهان هذا الخليفة ، وقبض عليه ، وأجلس مكانه المطيع بالله على عرش الخلافة ، وحدد له راتبا ألف درهم فى اليوم ، ثم قطع هذا الراتب عنه ، وحدد له إقطاعات يسيرة بالبصرة يعيش منها .

وكان آخر الخلفاء العباسيين الذين قتلوا ، وقتل معه أهله جميعا ، نبها بالمبيوف . هو الخليفة العباسى السابع والثلاثون المستعصم بالله ، وقتله الغازى المغولى تيمورلنك . وبقتله له انتهت صفحة الخلافة العباسية .

كان للوزير في ظل الخلافة العباسية مساعد الخليفة الأيمن .  
ويجمع في شخصه السلطتين المدنية والحربية ، ومستشارا له ومساعدة .  
وكان ينوب عنه في حكم البلاد ، ويشرف على الضرائب ، وينصب  
العمال . وكثيرا ما كان الوزراء يتعرضون لبطش الخلفاء العباسيين بهم .  
فقد قتل أبو العباس السفاح وزيره : أبو مسلمة الخلال ، أول الوزراء  
العباسيين .

وقتل أبو جعفر المنصور وزراءه وزيرا بعد وزير . قتل وزيره  
أبو الجهم ، ثم قتل وزيره أبا أيوب الموريتي .  
وقتل الخليفة المهدي وزير جده ثم أبيه ، ثم وزيره ، الربيع بن  
يونس .

وحدد الخليفة المهدي إقامة وزيره معاوية بن يسار في داره إلى  
أن مات ، ثم سجن وزيره يعقوب داود فظل سجينا إلى عهد الرشيد ، ولجا  
الوزير الفيص بن صلح من غضب المهدي . وقتل الرشيد وزراءه من بني  
برمك لأزدياد نفوذهم في الدولة .

وحين ضعفت الخلافة العباسية ، زاد نفوذ الوزراء في الدولة ،  
ولدى الخلفاء وقويت المنافسة بين طلبة الوزارة ، عن طريق الرشوة ،  
ابتغاء الوصول إلى كرسي الوزارة . وصار الوزراء يتدخلون في اختيار  
من يكون خليفة . فكان من يصل إلى الخلافة من بني العباس ينتقم من  
المناوئين لاستخلافه من الوزراء .

فقد قتل الخليفة المتوكل وزير الخليفة الواثق : محمد بن عبد  
الملك الزيات ، وكان من قبل وزيرا للخليفة المعتمد ، وللخليفة الواثق .  
وقتله في تور من حديد ، وضع فيه مسامير ليغضب به من يريد تعيينه .  
وكان ذلك التور من ابتكار ابن الزيات ليغضب به خصومه ، فكان هو أول  
من غذب به ، وكان قتل المتوكل له لأنه كان يسعى لاختيار أحد أبناء  
الواثق خليفة بدلا منه .

وحين ولي المستعين بالله الخلافة اتخذ أحمد بن الخطيب وزيراً له، لكن الأمراء هددوه بالقتل لتضييقه عليهم في الأموال. فسارع بالهرب من البلاد ولم يبق في الوزارة إلا شهرين.

واستوزر المهدي بالله سليمان بن وهب ، وكان منزلته عنده مثل منزلة البرامكة عند الرشيد ، وبنى مهل عند المأمون . وكان بنو وهب فرسان ذوي مواهب ونفوذ ، وصار الوزير سليمان بن وهب وزيراً للخليفة المعتمد بعد المهدي . وحين مات ابن وهب حمل الخليفة المعتمد على تصفية أموال أهل بيته . واستتصا شافقتهم ، فسارع ابنه عبيد الله بن سليمان بدفع ألفي ألف دينار للخليفة المعتمد ، فاحتفظ بهيبة أسرته العريقة ، وسارع الخليفة بتعيين عبيد الله هذا وزيراً له ، في كرسي أبيه الشاعر . وكان للخليفة المقتر أكثر من وزير .

فقد المقتر الوزارة لها الحسن علي بن الفرات ثلاث مرات ، ثم قبض عليه وزج به في السجن . وكان لبني الفرات من الشأن في العصر العباسي ما كان لمن قبلهم من البرامكة وبنى مهل وبنى وهب . وكان الوزير علي بن عيسى من أقدر وزراء الخليفة المقتر ، لكن بقاءه في الوزارة لم يطل ، بسبب إصراف الخليفة المقتر في عزل الوزراء ، والقبض عليهم ، وتدخل النساء في أمور الدولة .

وقد حدث أن قهرمانة السيدة لم الخليفة ، أرسلت إلى الوزير علي بن عيسى تطلب منه تقديم المال اللازم لها لعيد الأضحى ، فاستأثر الوزير ففضبت القهرمانة ، وأوغرت صدر السيدة عليه ، فقبض عليه وزج به السجن .

وخلفه الوزير حامد بن العباس ، وكان قليل الخبرة بالوزارة ، وهو الذي تم على يديه قتل الحسين بن منصور الحلاج .

ولقد تقلد الوزارة في عهد الخليفة المقتر اثني عشر وزيراً ، عزل بعضهم مراراً .

وعزل الخليفة للراضي وزيره ووزير المقتر من قبله : محمد بن مقله ، بعد أن قطع يده اليمنى وحيسه ، لوشاية أعدائه به ، ثم اتضحت له براءته . وحين اضطر للخليفة المقتر لتقليد ابن رائق شئون الدولة كلها ، ولقبه بلقب أمير الأمراء ، أصبح تعيين الوزراء وعزلهم بيد أمير الأمراء ، واقتصرت مهمتهم كوزراء على الحضور إلى دار الخلافة في

المواكب مرتدين السواد، متقلدين للميوف والمناطق، ومواها من شعارات الوزارة العباسية .

وحين استولى البويهيون الشيعة على بغداد ، بدعوة من الخليفة المستكفي قضا على نفوذ الوزراء ، وحلوا مطهم، واستبدوا بالسلطة دون الخلفاء العباسيين ، وكذلك كان شأن الخلفاء والوزراء العباسيين فى عهد السلاجقة المسلمين ، الذين حلوا محل البويهيين فى بغداد.

وكثيرا ما كان للكتاب فى الدولة العباسية كتابا وزراء ، والوزراء كتاب ، وكثيرا ما كان للكتاب فى الخلافة العباسية معرضين للاضطهاد والعزل والمصادرة، وزراء كانوا أو غير وزراء .

\* \* \*



فصل الرابع

الحالة الاقتصادية والاجتماعية  
في خلافت القمهر





مع بداية الدولة العباسية راح العباسيون يستصفون أموال بنى أمية ، ويكتشفون مظالم بنى أمية ، ويأخذون الأموال لأنفسهم وأنصارهم ، ويحتذون المظالم الأموية ، ويحاكونها فيما بعد ، واعين كانوا أو غير واعين ، فالخلافة العربية في جوهرها خلافة واحدة ، أموية كانت أو عباسية ، خلافة قهر واستبداد ، وورثة وتملك . فماذا وجد العباسيون وراء بنى أمية ، وأنصار بنى أمية ، وصحابة من صحابة الرسول عاشوا في عهد بنى أمية ، طوال تسعة وثمانين عاما؟!

كان معاوية بن أبي سفيان ، هو أول الخلفاء المسلمين الذين اتخذوا الحشم ، وأقاموا الحجاب على أبوابهم ، ولقد وضع معاوية مقصورة خاصة به في المسجد لصلاته ، يحرسها مسيوف ، وحراس وقوف ، يحرمونه أثناء صلاته في الجمع ، والصلوات الخمس كلها . وكانت ثياب معاوية بيضاء من غير سوء ، وعمامته بيضاء ، مرصعة بالجواهر ، وبهذه شارتا الملك : عصا الملك ، وخاتم الملك يمر به أوامره .

وكانت قصور كل الخلفاء الأمويين في دمشق (عدا عمر بن عبد العزيز) مزدانة الجدران بالفسيفساء ، وأعمدتها من رخام مذهب ، ومسقفها مذهبة ، مرصعة بالجواهر ، وبساتينها بها نافورات ، تحيط بها أزهار عطرة ، وأشجار برتقال وليمون ، والمياه تتدفق في جداول بحدائقها الفسساء ، خلال أشجار ظليلة وريفة ، تتصل إلى القصور من كل الأنحاء ، وبين طرقات من الأحجار والحصباء .

وداخل كل قصر كانت أفنية مستطيلة ، تحيط بها أروقة من الأعمدة ، أراضيها من الرخام والبلاط الملون . وعلى جوانب أوسع فناء إيوان مفروش بالرخام ، يستعمل قاعة للاستقبال في الصيف ، وقبالة بساب الفناء كوة ، وناقذة ، مزخرفتان بأعمدة الرخام ، وفي الكوة طست وإبريق للوضوء .

وفى البهو الكبير بقصر الخلافة ، كان للخليفة الأموى يجلس ، على يمينه أمراء البيت الملك ، وعلى يساره رجال الدولة وأعيان البلاد ، وأمامه رسل الملوك ورؤساء الطوائف ، والشعراء المداحون ، والفقهاء الواصلون ، جاهزون للجدال ، والخلاف ، وحيل للفقهاء . يخرجون بها الناس من التحريم إلى التحليل ، ومن المحظور إلى المباح .

وقصور الأغنياء من الأمويين ، وغير الأمويين ، فى دمشق وسواها ، من مدائن العروبة الأموية ، كانت من طبقتين ، وعلى اليمين والشمال أبهاء وأبواب ، تكسو هذه وتلك ستور كثيفة ، من الحرير والقطنية ، ووراء الستور حجرات ، وفى الطابق الأسفل الخدم والحشم ، والعبيد والجواري ، والقيان والسميرات .

وفى الشتاء كانت أراضي الإيوانات الرخامية ، والحجرات الملونة ، تزود بالطناقص للشمية ، تتوسطها المواقد طلبا للدفء . وفى الصيف كانت مياه التناوير ، وأهوية النوافذ والكوى ، وعليها ستور مبللة دائما ، تلطف حرارة الجو ، وحتى سقف قصور الأغنياء كانت مزينة بنقوش عربية الطراز ، مطلية بالذهب . وتحت هذه السقوف كانت مقاعد من الطنائس ، طنفسة فوق طنفسة ، تحتها طنفسة ، هى مقاعد قصور الأغنياء والأمراء .



وبعد عبادات الصوف البدوية الخشنة ، المرقعة بالألوان (الجلد) ، وبعد القرب المعلقة على الأكتاف ، فى الأسفار القصيرة والطويلة ، وبعد الأكبية المشقوقة الوسط ، تحت المباءات ، والمربوطة الوسط بحزام من الجلد ، صارت هذه العبادات من أصواف الأمصار الناعمة النسيج ، وصارت الأكبية من حرير لم يبعه الإسلام للرجال ، وصارت القرب تحملها الإبل ، والخدم ، والبغال .

وأولئك ، وهؤلاء ، خلفاء ، وأمراء ، وأغنياء ، كانت لهم رياضاتهم للتسلية وسباقات الخيل ، وللصيد ، تديبا ، فى الوقت نفسه على القتال ، وصيد الهاربين والمتهربين من دفع الخراج ، أو من الرق ، وصيد الأمري فى ميادين الطراد والقتال ، وحتى كلاب الصيد الأموية ، كانت لها أساور من ذهب ، وأردية من حرير ملونة ، ولكل كلب خادم أو أكثر ،

هو عبد من العبيد ، اشترى بالمال من وسط أميا ، أو جئ به أسيرا من أسرى الحروب ، كى يقوم بخدمة الكلب ابن الكلب .

وعرف أهل القصور الأموية ، والعربية ، حياة الترف وحب الظهور ، ومنهم كان صحابييون أجلاء :

الزبير بن العوام كانت له قصور بالبصرة ، وبالكوفة ، والفسطاط ، والإسكندرية ، وبلغ ماله حين وفاته ، خمسين ألف دينار ذهبى روماني ، وألف فرس ، وألف عبد ، وألف أمة ، وكانت له مزارع فى العراق ، ومصر ، والحجاز .

وطححة بن عبد الله ، أحد العشرة المبشرين بالجنة ، كانت له قصور بالكوفة ، وعلى قمم جبل بمدينة الطائف ، على ارتفاع خمسة آلاف قدم فوق سطح البحر ، ومزارع من الكروم الطائفي ، وقصب السكر ، وقصور بالمدينة ، وكانت له مزارع بالعراق ، تدر عليه فى كل يوم ألف دينار ذهبى .

وعبد الرحمن بن عوف ، أحد رجال الثورى الستة ، كانت له قصور بالمدينة ، والشام ، ومصر ، وبلغت ثروته حين وفاته 682 ألف دينار ذهبى ، وألف بعير ، وعشرة آلاف من الغنم ، وفى حظائره كان مائة فرس ، هذا لنزله ، وذلك للسباق ، لو القتال .

وسعد ابن أبى وقاص فاتح بلاد فارس ، كان له ، حين وفاته ، قصر وحيد بالعقيق بظاهر المدينة محاط بشرفات على الجهات الأربع ، كل منها لمجلس من مجالس الفصول الأربعة .

وسعيد بن المسيب بن زيد بن ثابت ، ترك وراءه ، حين وفاته ، من الذهب والفضة ، ما يكسر بالفنوس ، ومن الأموال والضياع ، ما قيم فى حيله ، بمائة ألف دينار ذهبى روماني .

والمقداد بن الأسود ، كان له قصر بأعلاه شرفات ، فى موضع "الجرف" على بعد أميال من المدينة .

ويطى ابن أمية ، ترك وراءه ، حين مات ، خمسمائة ألف دينار ذهبى ، وعقارات ، وديونا له على العباد ، قدرت ، حين تقسيمها بين الورثة ، بمائة ألف دينار ذهبى روماني ، ولم يكن لأحد منهم شيء من هذا كله فى عهد عمر بن الخطاب . ولم يقدر أحد فى عهد عمر ، أن يخرج للقتال ، ويخرج وراءه أكثر من ألف رجل ، فقط لحمل حاشيته ، ومتاعه ،

وهو في طريقه إلى حرب ، قد يسقط فيها شهيدا ، وقد يعود منها غانما ظافرا ، مثل ذلك للرجل الغني المقاتل من أهل الكوفة ، الذي خرج للجهاد ، وأيضا لكي يأخذ بنفسه ويحاشيته ويرجاله معا ، أنصبة أكثر من الغنائم والقيء في ساحات القتال ، حين الزحام لجمع الغنائم والأملاك ، وحين التحلق في حلقت لأخذ نصيب من القبيء.

ولم يعرف عهد عمر بن الخطاب ، أحد خلفاء الثوري حفيدا مثل الهر بن يوسف ، حفيد مروان بن الحكم ، وكان والد يوسف هذا واليا على الموصل . وكان لهذا الحفيد خانات (فنادق) يملكها بالموصل ، تعمل لحسابه . وكان له قصر منيف بالموصل ، من الرخام والمرمر ، وقد شقت له قناة خاصة من النهر ، تمد حدائق القصر بالمياه .

ولقد بلغت تركة معاوية بن أبي سفيان الخاصة ، حين وفاته ، رقما مذهلا هو رقم بيت المال الخلافي نفسه ، فلم يكن ثمة فرق بين مال بيت المال العام ، ومال الخليفة الخاص .

وللخروج من هذا الحرج ، وحتى لا يترك بيت المال خاويا ، بأيلولة ما به بالميراث إلى ابنه يزيد ، أوصى معاوية بنصف ماله إلى بيت المال . ولا يدرى أحد هل نفذ يزيد هذه الوصية بعد وفاة معاوية ، أم لا .

وكانت لمعاوية أرض بالبقاء ورثها عن أبيه سفيان بن حرب ، واشترى معاوية في خلافته أرضا بوادي القرى من بعض اليهود ، وأضاف إليها أرضا بالإحياء للأرض للموات ، أنفق على إحيائها بالطبع من مال بيت المال . واشترى معاوية أرضا بالطائف من بعض اليهود .

ووضع معاوية يده على "ذلك" مغيرا سنة أبي بكر وعمر ، اللذين جعلها مالا عاما لبيت المال ، وأقطعها لمروان بن الحكم ، فورثها من بعده ، أولاده ، وهي الأرض التي رفض أبو بكر أن يعطيها لفاطمة ابنة الرسول ، لأن الأنبياء لا يورثون ، وما يتركونه صدقة عامة ، تودع عواندها في بيت المال .

ولقد أخذ معاوية لنفسه في عهد عثمان أراضي للصوفى كلها (الإقطاعيات) بالقياس للتي كانت لقواد الروم ، وبطارقتهم ، وكانت بينها كورثان ، بفلسطين .

واستصلح معاوية لنفسه، ويمال بيت المال، أرضا بالبطائح بين البصرة والكوفة. استصلحها له مولاه عبد الله بن دراج، واليه على العراق، ولقد جعل معاوية أرض مصر طعمة (قصة خاصة) لعمر بن العاص، مدة ولايته للثانية على مصر، (خمس سنونات) مكافأة له لاسترداد مصر، من التبعية لعل بالكوفة، إلى التبعية له (معاوية) بدمشق. يأخذ عمرو خراجها، وجزياتها، وعشورها، لنفسه، وينفق منها ما يقبل أن ينفقه على الأجناد ومصالح أهل مصر، ويدخر منها ما يريد لنفسه، ولا يعطى لبيت المال في دمشق من هذا العائد كله أى شيء. ومثل معاوية فعل من بعده مروان ابن الحكم، حين أقطع لابنه عبد العزيز بن مروان، الولي على مصر، مصر كلها، تمويضا له عن عدم توليته العهد، بعد أخيه عبد الملك. ودامت هذه الإقطاعية لذلك الولي، عشرين سنة، في عهده، وفي عهد إخوته الخلفاء من بعده: (عبد الملك، والوليد، وسليمان).



وكان الإسلام قد أبطل هدايا أعياد النوروز والمهرجان الفارسية، التي كان الشعب الفارسي يجمعها ويقدمها لولاة أكاسرة الفرس على أناليم فارس، ولكن معاوية أعاد هذه السنة الفارسية بالأمر الخلفي، كي يفتنى ولائه على فارس بالأمر الخلفي، فكان أهل الفرس يهدون الهدايا عامله على الخراج عبد الله بن دراج، وكان نصيب معاوية من هذه الهدايا في السنة عشرة ملايين درهم، تصل إليه في الشهر السابع من السنة الفارسية، شهر مهرماه.

كذلك رفع معاوية الجزية على أهل مصر خمسين في المائة، بدعوى أن مصر فتحت حنوة، لا صلحا، وفرض على من أسلم من أهل مصر، أن يستمروا في دفع الجزية بعد إسلامهم، فكان هناك مسلمون عرب في الدولة الأموية (من الدرجة الأولى في المواطنة) لا يدفعون جزية، ومسلمون غير عرب (من الدرجة الثانية في المواطنة) يدفعون جزية، وترك طيهم صا منه عمر بن الخطاب.

ومن بعد معاوية غير عبد الملك نظام الجزية على أهل الجزيرة والقيام، فبعد أن كلفت ديناراً في عهد عمر، ودينارين في عهد عثمان، وثلاثة دنانير في عهد معاوية، صارت أربعة دنانير، هي كل ما كان

يمكن لتفكير أن يدخره في علم ، وموسى في هذا للرفع بين الأغنياء  
والفقراء ، ولم تعد الجزية إلى ما كانت عليه إلا في عهد الخليفة عمر بن  
عبد العزيز القصير العمر (مستتين وسبعة أشهر) ، ثم عادت من بعده إلى  
ما كانت عليه ، للإبقاء على ثراء الخلفاء ، ومال الخلفاء في بيت المال ،  
في العهد الأموي ، والعهد العباسي ، على السواء .

ولقد كان عمر بن عبد العزيز قد أعفى رهبان مصر من دفع أية  
جزية ، لكن والى مصر عبد العزيز بن مروان ، فرض على كل راهب  
أن يدفع ديناراً في كل سنة ، ولم تقبل من بعده .

ولقد كان الموالي من الفرس ، قد أقبلوا على الإسلام بقرى فارس  
باسرها في عهد عمر بن العزيز ، لأنه أسقط عن مسلم دفع الجزية ،  
فوجدوا على المدن ليقموا بها تاركين قراهم ، والأرض التي يزرعونها ،  
فراراً من دفع الخراج ، لكن الحجاج بن يوسف الثقفي والى عبد الملك  
ابن مروان أعادها عليهم ، بعد إسلامهم ، ونقش على يد كل منهم بالوثم  
والكى اسم قريته ، وأعادها إليها ، وجرو ولاية مصر الأمويون ، من قبل  
عبد العزيز بن مروان ، على أن يسوا كل راهب بحلقة فيها اسمه ، واسم  
ديره ، وتاريخ رهبنته ، حتى يتميز الراهب الذي لا يدفع جزية ، من  
مدعى الرهبة الذي يطلب لنفسه هذا الإعفاء .

ومن وراء ظهر الخلفاء الأمويين ، فعل للولاة الأمويون أفاعيل  
عجيبة ، بأموال بيت المال في الأقاليم ، حين يثرون على الخلفاء ، أو  
حين يعزلون عن ولايتهم ، وبعضهم تفوضى عن أفاعيله ، وبعضهم حوّل  
عليها : والى قره بن شريك ، وكان من الولاة المرتشين ، ولى أمر مصر  
خلفاء لعبد الله بن عبد الملك ، فأخذ كل أموال البيت بمصر ، وهرب بها  
إلى الأردن ، حين عزل عن مصر ، فطورد وقبض عليه ، وصودر ما  
معه ، وأسلمه عبد الله لأخيه الخليفة الوليد ، فقتله هو وعبيده .

وعبد وعبد الرحمن ابنا زياد ، كانوا واليين على خراسان ،  
وسجستان ، وعزلا عن الولاية ، وأقيم أخوهما سلم بن زياد ، ولما مكثهما  
على الولايتين ، فصار عباد بتقسيم المال بينه وبين عبيده انتقاماً من هذا  
العزل له عن ولاية الخراج ، ولم يعاقب الخليفة يزيد بن معاوية عباداً على

ما فعله بمال بيت المال ، بل إنه منح أخاه عبد الرحمن بن زياد تسعة عشر مليون درهم ، مثل التي نالها نهبا أخوه عباد .  
وحين دخل المختار الثقفي الشيعي التأثير مدينة الكوفة عنوة ، وجد في بيت مالها تسعة ملايين درهم ، استطاع ، وأعطاهما لمن كان معه من الجنود والموالي الشيعيين ، وترك بيت مال الكوفة خاليا للمؤمنين .  
وانتقد حدث في عام (12 هجرية) أن سجلات العسراق أحرقت ، وكانت للدولة بهذه السجلات أراض يبلغ عائدتها خمسين مليون درهم .  
وعندئذ تقدم أفراد ، وتقدمت أسر ، ووضعت أيديها على هذه الأراضي الخاصة بالدولة ، وبين الواضعين لأيديهم كان عمال الخلافة بالعراق ، وكأنها كانت أراض لا صاحب لها .

وفي عهد بني أمية ، ظهرت ظواهر اقتصادية عجيبة ، هي :  
الإلجاء ، والإيفار ، والتقبل ، فضلا عن الصوافي (أي الإقطاع) التي ظهرت في عهد عثمان .

فقد كان المزارع يلجئ أرضه إلى أمير ، أو غنى قوى ، يحتسب به ، ويكتب أرضه باسمه ، ويقوم المزارع بدفع خراجها الميسر بهذا الإلجاء . وتكون النتيجة دائما هي أولولة هذه الأرض إلى من كتبت الأرض باسمه . فعل ذلك الناس مع مسلمة بن عبد الملك بالبطائح بالعراق ، وفعله أهل مراغة في أنريجان مع مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين ، وفعله العجم في قرى أنريجان مع القواد العرب في أنريجان . وكان نظام الإلجاء هذا ، قبل الإسلام نظاما للحماية فارسيا وروميا ، في مناطق الحدود .

ونظام الإيفار كانت له صور ، منها أن يؤدي أخذ الأرض من الخليفة (وهو دائما من أتباع الخليفة) الخراج مباشرة إلى للخليفة ، فرارا من العمال ، ومنها أن يعفى للتابع من أداء أي خراج عن الأرض الممنوحة له من الخليفة .

ونظام التقبل يعني أن يعطى أخذ الأرض للخليفة مباشرة قدرا معلوما من المال يدفعه ، فيستفيد السلطان تعجيل المال مقدما ، ويأخذ المستفيد الفرق بين ما دفعه ، وما يحصله من زرع الأرض (نظام الالتزام) . ولقد تصارع الأتباع في الحصول على شرف هذا الالتزام ،

فراحوا يزليدون على بعضهم البعض ، في مزاد عام عاما بعد عام،  
والمستفيد الأول هو الخليفة ، والمضار الأول هم المزارعون، وهو نظام  
غير شرعي في الإسلام ، ففيه فساد في الأرض، وإهلاك للحرث والنسل،  
ودفع للمضارين للفرار من زراعة الأرض.

• • •



وفى العصر العباسى، اشتعلت نيران المناقصة بين عرب الشمال  
المضريين وعرب الجنوب اليمانيين ، وبين العرب قاطبة والفرس ، وبين  
العرب والفرس معا والترك، وبين الترك والديلم، وبين السنيين والشيعة،  
وبين العباسيين والمولويين . وكانت طبقات الشعب الرئيسية فى العصر  
العباسى تتكون من : العرب، والفرس، والأتراك.  
ومن طبقات الشعب كان أهل الذمة من النصارى واليهود.  
وكان الرقيق يكون طبقة كبيرة فى المجتمع العباسى فى  
العصر الأول.

وقد انغمس العباسيون فى الترف والبدخ، وأخذوا نظم مجالس  
الفرس فى الغناء والطرب ، وبلغ الرشيد فى الولع بالغناء الخروء، ونىغ  
أخوه إبراهيم بن المهدي فى الغناء، وجازى الأمراء والوزراء ومناظر  
رجال الدولة الخلفاء العباسيين فى الولع بالطرب والغناء والمناظرة ،  
وأجزلوا العطايا للموسيقيين والمغنين.

وكان للخليفة الواثق نفسه يتغن الغناء اتفاقا لم يسبق إليه خليفة  
ولا ابن خليفة ، وقد وضع أصواتا وأنغاما جديدة بلغ عددها نحو مائة  
صوت . وكان ماهرا فى ضرب العود، وكان يصحبه دائما فى أسفاره  
إسحق الموصلى.

واتخذ الخلفاء العباسيون القصور : وكانت قصورهم دورا واسعة  
بها قباب وأروقة ، ومسطحات مظلة بالأشجار ، بها غلمان يتزلجون عددهم  
بين الأربعين والتمتين غلاما . ومن هذه القصور ، قصران بنامهما أبو  
جعفر المنصور : قصر الذهب بوسط بغداد ، وقصر الخلد على شاطئ  
حجلة الغربى . وكانت بقصر الخلد قباب بدیعة الشكل ، وبأبوابه معبأ بمير  
من الذهب والفضة ، تتخلله أعمدة كثيرة ضخمة ، مزينة بالرسوم

والصور . وفي هذا القصر العرش ، ويسمى مجلس الأمير ، وقد فرش بالرخام المجزع ، يتوسطه قضبان من الذهب ، ومد عليه الديباج والبسط ، وعلى هذه البسط نقشت أبيات من الشعر في مدح الخليفة .

وفي مجلس الأمير كانت كراسي مرصعة باللؤلؤ يجلس عليها كبار رجال الدولة . وفي صدر هذا المجلس كان عرش الخليفة المنصور ، في قبة مفروشة بالفخر أنواع الحرير المنسوج بالذهب .

وعلى شاطئ بحلة بني الرشيد قصرا تلقى في تجميله ، وزينه بأفخر أنواع الزينة ، وأقام فيه أساطين للرغام . وكان يجلس إلى الشباك يستمع إلى غناء الملاحين .

وشيد الخليفة الفائق في مدينة سامراء عدة قصور منها القصر الهاروني ، وبه رواق أوسط ، في أحد شقيه قبة مرتفعة في السماء كأنها بيضة ، وفي وسطها ساح منقوش مغطى باللازورد والذهب . وكان ذلك الرواق يسمى رواق قبة المنطقة .

ومثل الخلفاء العباسيين ، شيد الأمراء ورجال الدولة قصورا تكتلها الحدائق الغناء . وبلغ من فخامة أحد هذه القصور واتساعه ، أنه اتسع لمجلس الخليفة المنصور ، ومعه أربعة آلاف رجل . وكان هذا القصر للأمير العباسي عيسى بن عبد الله بن العباس ، عم الخليفة المنصور .

ومثل الخلفاء العباسيين شيد الوزراء للبرامكة لهم قصورا ، وتألفوا بتجميلها وتأثيثها ، كي تبقى شاهدا على الزمن تنطبق بمآثرهم وذكرهم . وعاش البرامكة في هذه القصور عيشة قوامها البذخ والإسراف وحب الظهور . وتكلف بناء قصر جعفر البرمكي مليون دينار ذهبي وثلاثمائة ألف دينار ، عدا ما كان به من أثاث وريش ، وأسباب البذخ والأوان الثرف .

وشيد محمد بن سليمان قصره بالبصرة ، وبلغت ثروته حين ودع الدنيا خمسة ملايين دينار من الذهب .

ونافس الفاطميون ببصر والشام والأمويون بالأندلس بقصورهم قصور خلفاء بني العباس وأمرائهم وكبار رجال دولتهم .

وأُسرف الخلفاء العباسيون في الطعام ، وقادهم الأمراء ، وكبار رجال الدولة . وكانت نفقات مطابخ المأمون ستة آلاف دينار ذهبي في كل يوم ، وشرب بعض الخلفاء الأمويين النبيذ ، ومنعه أكثرهم على مواعدهم . وليس الخلفاء العباسيون في المواكب الأقبية السود ، أو البنفسجية المفتوحة عند الرقبة ، وكانت هذه الأقبية تصل إلى للركية . وكانت القفاطين تظهر من تحتها زاهية . وبلغ عرض أكمام هذه الأقبية في عهد الخليفة المعتصم ثلاثة أذرع . وكان الخليفة العباسي يتمنطق بمنطقة مرصعة بالجواهر ، ويتشح بعباءة سوداء ، ويلبس قلنسوة طويلة مزينة بجوهرات غالية ، وحول القلنسوة عمامة ذات لون أسود ، وكان الخلفاء يلبسون أحياناً العمامة والطيلسان . وكان الأمراء والنبلاء يقلدون الخلفاء في ملابسهم . وأولع الخلفاء العباسيون بتغلا الإماء من غير العرب ، لأنهن كن في الغالب أوفر جمالا . وكثيرا ما كان أبناء الجوارى أحب إلى آبائهم من الخلفاء والأمراء العباسيين من أبناء الحرائر . وكان كثير من الخلفاء العباسيين أبناء أمهات أولاد . فأم المأمون فارسية ، وأم المعتصم تركية ، وأم المتوكل تركية خوارزمية ، ولم كل من المعتز والمعتزى رومية ، وأم المطيع بالله صقلبية .

وحين بلغ النفوذ الفارسي ذروته في عهد الخليفة الرشيد ، احتفل الرشيد بالأعياد الفارسية القديمة .

وحرم الخلفاء العباسيون على منافسة سابقيهم من الخلفاء الأمويين في المواكب . ففي أيام الجمع كان الحراس على اختلاف طبقاتهم يتقدمون موكب الخليفة لصلاة الجمعة ، حاملين الأعلام ثم يليهم أمراء البيت العباسي على الخيول المطهمة ، ثم يظهر الخليفة نفسه ممتطيا جوادا شديد البياض ، وبين يديه كبار رجال الدولة .

وكان الخليفة يلبس في تلك المواكب للقباء الأسود ويتمنطق على قفطانة بمنطقة مرصعة بالجواهر ، ويتشح بعباءة سوداء ، ويلبس قلنسوة طويلة مزينة بجوهرات غالية ، ويده قضيب النبي صلى الله عليه وسلم وخاتمه ، ويتكلى على صدره سلسلة ذهبية مرصعة بالجواهر للنفيصة . وفي أوقات الصلاة ، كان يضرب على أبواب قصور الخلفاء بالطبول والدفادب والأبواق .

وأعظم مواعيد الخلفاء العباسيين كان موكب الحج . ففي بغداد كان يجتمع الحجاج من أهل العراق وفارس وخراسان ، يحرسهم الجنود . ويتقدمهم في الطريق إلى الحج موكب الخليفة ، وقد ارتدى بريدة الرسول وركب فيلاً ، ويصحبه جماعة من الأمراء ورجال بيت الخليفة ، تتبعه الإبل بحريمه وأهل بيته .

وفي حفلات الزواج كان يتجلى إمبراطور الخلفاء . فقد أقام الخليفة المهدي عند زواج ابنه هارون بالسيدة زبيدة وأيمه ، لم يسبق إليها أحد في الإسلام ، ووهب للناس في هذا اليوم ألوانى الذهب مملوءة بالفضة ، وألوانى الفضة مملوءة بالذهب والمسك والعنبر ، وزينت زبيدة بكثير من الحلى والجواهر ، حتى أنها لم تقدر على المشى ، لكثرة ما عليها من الحلى والجواهر .

وأمر المأمون "بوران" يوم زواجها بمائة ألف دينار ذهبى ، وخمسين مليون درهم فضى (أكثر من نصف مليون دينار ذهبى) ، وأوقد بين يديه فى تلك الليلة ثلاث شمعات من العنبر . ونشر المأمون على بوران لؤلؤا كان فى كفه . فوقع على حصير منسوج من الذهب . فالتقطت منها زبيدة حبة ، وتبعها الحاضرون فى التقاط اللؤلؤ .

وبلغت نفقات زواج السيدة زبيدة سبعة وثلاثين مليون درهم . وأمر المأمون الحسن بن سهل والاد بوران بعشرة ملايين من الدراهم ، ومنحه خراج إقليم قم صره كله ، وخراج إقليم فارس والأهوار لمدة سنة وأسرف الحسن بن سهل نفسه فى زواج لبنته من الخليفة المأمون ، فنثر على الهائمين والقواد والكتائب بنادق مسك ، بها رقاع بأسماء ضياع وجوار وخيول ، هبة لهم ، ثم نثر على سائر الناس الدراهم والدراهم ونوافح المسك وبيض العنبر .

وكان الخلفاء العباسيون مغرمون بالصيد بحذاء نهر دجلة ، يصيدون الطيور والغزلان . وكانت نصال سهامهم من الذهب . وكانت لهم كلاب صيد سريعة العدو . لكل كلب منها راع يقوم برعايته .

وفى العصر العباسى الثانى قامت قبيحة زوجة المتوكل وأم المعتز بدور هام فى عزل الخليفة المستعين ليصفو الجو لابنها المعتز ، ومع ذلك تركت ابنها للأثر كى يقتلونه لأن روايتهم تلخرت عليهم ، وقدرها

خمسون ألف دينار. فذهب ضحية بخلها وهبوتها ، وحين ماتت وجدوا عندها مليوناً وثلاثمائة ألف دينار ذهبي .

وكانت السيدة أم الخليفة المقتر تجلس للنظر في المظالم ، في مكان بنته في الرصافة ، فإذا تخلقت عن مجلسها هذا أقابت فهرمانتها ثومال . وأدى تدخل هذه السيدة في شئون الدولة إلى أن ينظر الناس إلى الخلافة والخلفاء نظرة احتقار . وكندجحت هذه السيدة في عزل الوزير بن الخصيب وصارت أمواله في سنة 314 هجرية .

عن عصر الخلافة العباسية ، ورثنا أربع قوائم عن خراجها وأزوتها. هي قوائم: للجهشياري، ولبن خلدون، وقدامة بن جعفر ، وابن خرداذبة، وهذا الخراج في قائمة الجهشياري بلغ (530 مليون درهم) و(530 مليون درهم) في قائمة ابن خلدون ، و(393 مليون درهم) في قائمة قدامة ابن جعفر، و(335 مليون درهم) في قائمة ابن خرداذبة. وتتعب هذه القوائم إلى عصر هارون الرشيد ، صاحب المقولة السائرة للمحابة "أمطري حيث شئت فسوف يأتيني خراجك". وكان هذا الخراج يجبي من 43 إقليماً تمتد من تخوم الصين وأواسط الهند، إلى تخوم المغرب (بعد استيلاء عبد الرحمن الداخل الأموي على الأندلس، والأغالبة على المغرب). وبوسعك أن تضع أمام أرقام هذه القوائم ثلاثة أصفار على الأقل، لتعرف قدرتها القرائية بأسمار اليوم، وطبك أن تضع في الاعتبار الفارق بين العصر الوسيط والعصر الحديث في القدرة الإنتاجية .

وفي عصر الخلافة العباسية ، كثرت الضياع . وشاع نظام التقبل أو الضمان ، وشاع نظام الإلجاء والإيفار . وتفتت هذابا النيروز . ففي هذا العصر ورث العباسيون ضياعاً عديدة واسعة ، كانت لبنى أمية وأتباعهم . وأضاف إليها العباسيون ضياعاً جديدة. أضعاف الضياع الأولى ، عن طريق إحياء الأرض للموات . أو الشراء ، أو المصادرة للأراضي من عهد الرشيد إلى عهد المتوكل . فامتعت إلى مدى بعيد أملاك الأسرة العباسية عامة، والخليفة خاصة .

ومن هذه الضياع ضياع خاصة ، وضياع عباسية ، وضياع مستحدثة، وضياع قرطية ، وضياع عديدة الأسماء تحدث عنها جرجي زيدان في كتابه تاريخ التمدن الإسلامي.

ومن هذه الضياع كانت ضياع الخويزان، أم الهادي والرشيد، وقد بلغت غلتها في العام مائة وستين مليون درهم ، وضيعة محمد بن سليمان بن علي ، والي البصرة ، وكانت قيمة غلتها في كل يوم، مائة ألف درهم.

وحين صادر الرشيد أموال هذا الولي وجد ماله السائل فقط (دون الضياع والدور والمستغلات الأخرى) أكثر من خمسين مليون درهم .

وحين صادر الرشيد أموال الأخوين البرمكيين جعفر ويحيى ، وجدها أكثر من خمسين مليون درهم ، عدا الضياع، والدور، والرياش ، على كثرة ما أنفق وأسرف في إنفاقه الإخوان البرمكيان .

وكان أغلب من ولوا مناصب الكتابة ، والوزارة ، يعملون جهمهم ليكونوا من الأثرياء وأصحاب الضياع ، سواء أكتفوا من العرب ، أم من الفرس ، أم من الأتراك . فوجدت، في العصر العباسي ، الملكيات الكبيرة، والإقطاعيات الواسعة . وذلك يعني سوء توزيع الأرض الزراعية في العالم الإسلامي العباسي الكبير، وقلة الملكيات الصغيرة جدا، وكثرة الأجراء الزراعيين الموسمين وكثرة المشردين بين القسرى، ينتظرون فرص العمل ، ويمدون أيديهم بالعبود ، وينتظرون الصدقات.

وفي عصر الخلافة العباسية ، شاع نظام التقبل ، أو الضمان ، أو الالتزام أكثر مما كان موجودا في العصر الأموي ، بل إنه راح يتزايد منذ عهد الخليفة المنصور إلى أن سقطت هذه الخلافة وعاصمتها في أيدي المغول.

كان الخليفة يكتب إلى واليه على إقليم من الأقاليم ليضمن له خراج إقليم على مبلغ معين ، فإن قبل ولي الخراج وإن لم يقبل عزل وأعطى لسواه، فقد رفض محمد بن الأكتيش والي المنصور على مصر أن يقبل ذلك الضمان فعزل ، وقبل ذلك محفوظ بن عبد الرحمن ذلك الضمان للرشيد فولى خراج مصر .

وكان الخلفاء يطلبون هذا الضمان من ولاة خراجهم ويطلبونه هؤلاء الولاة ممن دونهم من العاملين بالخراج ، مدعين أنهم سيحصلون عليه بلا سوط ولا عصا .

وكان ذلك الضمان مرفوضا من فقهاء العصر العباسي ، لمخالفته لمبادئ الشريعة الإسلامية ، ولأنه يؤدي إلى ظلم الفلاح لبا كان دينه ، وعلى رأس هؤلاء الفقهاء كان القاضي أبو يوسف تلميذ أبي حنيفة ، وقاضي الرشيد .

ولقد وصل نظم التتبع أو الضمان أو الالتزام إلى أن يصبح هو النظام السائد في القرن الثالث للهجرة ، التاسع الميلادي . فكان "الفضل بن مروان" ملتزم بإقليم الأهواز على تسع وأربعين مليون درهم ، وكان آل طاهر ملتزمين بإقليم خراسان وأعمالها على أربع وأربعين مليون درهم .

وفي عصر الخلافة العباسية ، كان ولاة خراج مصر ، يجلس في جامع عمرو بن العاص بالقسطنطين في النصف الأول من القرن الثالث الهجري ، وقد اجتمع حوله الملتزمون من قبله ، بلراضى مصر قدامين من القرى والمدن . وينهض رجل كلفه الولاية ، وينادي على البلاد صفقات صفقات ، في صورة مزادات ، محتها أربع سنوات . ومن يرسو عليه مزاد الالتزام كان يعود إلى مدينته أو قريته ، ويتولى مسائل وجوه الأعمال بها من زراعة وإصلاح جصور ، وتحصيل الخراج من المزارعين في أقطار . وقد ظل هذا النظام معمولاً به في مصر ، إلى أن أبطله أحمد بن طولون في جامع ، إثر انتفاقه بمصر عن الدولة العباسية .

وفي عصر الخلافة العباسية . شاع أيضا نظام الإيجاء والإيجار أكثر مما كان شائعا في العصر الأموي ، فكان للمزارع الضعيف "إلجا" بأرضه إلى أمير أو غنى . محتيا به ، فيكتب باسمه أرضه ، ويقوم الأمير أو الغنى بدفع خراجها عنه . وكانت النتيجة دائما هي أن يؤولت هذه الأرض إلى ذلك الأمير أو الغنى ، أو إلى ورثتهما من بعدهما . وهو نظام كان موجودا قبل الخلافتين الأموية والعباسية في مستعمرات الروم ، وبلاد الفرس ، وبذلك يتحول صاحب الأرض إلى مزارع بالأجر ، في أرضه ، أو في سواها . وكان للمزارع الضعيف يقر بنفسه وأرضه ، من وإلى الإقليم ، فيؤدي خراج أرضه مباشرة إلى الخليفة نفسه ، وغالبا كان ذلك يحدث من المزارع الذي يحيى أرضا مواتا ، مجدبة ، شاسعة المساحات ،

مترامية في الفلوات . وعادة ما تكون هذه الأراضي في أطراف الدولة ، على حدود بلاد العدو .

ومن أمثلة الإلجاعات ، ما فعله أبو أيوب الموريتاني وزير المنصور ، حين جاء إليه رجل مزارع من الأهواز . قال له الأهوازي : إن ضيعتي بالأهواز . وقد حمل علي فيها العمل ، فإن رأى الوزير أن يعيرني اسمه ، أجعله عليها ، وأحمل إليه في كل سنة مائة ألف درهم . فقال له أبو أيوب : قد وهبت لك اسمي ، فقلل به ما بدا لك .

وحال الحول فأحضر الأهوازي مال ضيعته مائة ألف درهم إلى أبي أيوب ، وخرج شاكرًا لها أيوب . وتنفق أبو أيوب بيكس من قرط سروره ، وخوفه من زوال النعمة .

والقاسم ابن أمير المؤمنين الرشيد ، ووالى جرجان وطبرستان وقزوین ، ألجأ إليه أهل زنجان ضياعهم ، تعززا به ، ودفعوا لظلم ولاية الخراج عنهم ، ولمكاربه للصعاليك ، فصاروا مع الوقت مزارعين في ضياعهم ، وأصبحت أراضيهم ضياعا عباسية . وكذلك فعل أهل الشعبية على ساحل الفرات ، جعلوا ضياعهم لعلی بن الرشيد ، في خلافة الرشيد ، فصاروا مزارعين له فيها ، وقد كانوا مالكين لها . وخفف عنهم ابن الرشيد ، فجعلها عشرية من الصدقة ، وقاسم أهلها على النصف .

ومن أمثلة الإيفارات ، إيفارات يقطين ، وكان يقطين صاحب الدعوة للعباسيين عند حدود الدولة العباسية مع الروم ، فلوغرت له ضياع بأراضي الحدود ، يحيى مواتها ، ويؤدى خراجها أشترا ، وعجز يقطين عن السداد في الميعاد . فصودرت ضياعه فصارت ملكيتها إلى بني العباس .

وقد أمر المتوكل في القرن الثالث الهجري بيطال تلك الإيفارات فأبطلت .

وفي عصر الخلافة العباسية ، كانت الهدايا تُهدى في أعياد النيروز إلى الخلفاء ، والوزراء ، والولاة ، والكتّاب . أمضى أحمد بن يوسف وزير المأمون ، إلى المأمون في يوم عيد نيروز ألف ألف درهم فقبلها منه ، وضمها إلى ماله .

وأهدى الناس في يوم نيروز هدايا فيها جمالات من ذهب وفضة إلى خالد بن برمك .



وكان يوم النيروز هو أول يوم تفتتح فيه جبالية الخسراج، وأول يوم في السنة الفارسية، ولجل أعياد الفرس ، وبدء سنتهم للمالية ، وقلدهم العباسيون فجعلوا بدء السنة الفارسية موعد جمع الخراج من أرجاء الدولة العباسية وقد ترتبت على هذا الموعد مشاكل كثيرة ، بسبب اختلاف موعد بدء هذه السنة كل 116 سنة، ويسبب كون الشهر الفارسي ثلاثين يوما.

• • •



المجلد الثامن

الفنم الثورات في خلاقات القمر



فى خلافة بنى أمية التى دامت تسعاً وثمانين سنة ، صار الخوارج حزباً ميواسياً يماريا يمثل جمهوريين نوى مبادئ ديمقراطية متطرفة ، فى مواجهة حزب خلافى ملكى يمينى استبدادى، يقوم على تقوية الدولة بالتوسع الحربى ، وبمزيد من الضرائب ، وبالقهر للخصوم بالحيلة والدهاء حيناً ، وبحد السيف حيناً آخر .

ولأن الخوارج كانوا يعدون مرتكب المعاصى كبيرة كانت أو صغيرة كافراً ، تجب استتابته ، ويجب أن ينكر معاصيه، لتصبح استتابته، فقد كانوا قساة فى التعامل مع الخصوم ، حكاما كانوا أو رعائيا ، عربا كانوا أو موالى، لا يعرفون معهم شفقة ولا رحمة ، مع شيخ أو امرأة ، أو طفل رضيع ، أو نفس ألهمت التقوى ، كما ألهمت للفجور ، ومنحت العقل، كما منحت الشهوة للجنس ، وللمال ، وللمسلطة.

ولقد بلغ عدد فرق الخوارج عشرين فرقة ، أخطرهما وأكبرهما خمس فرق: الأزارقة أتباع نافع بن الأزرق، والتجنيدية أتباع ناجد بن عامر الحنفى ، والبيهسية أتباع أبى البيهس جابر، والأباضية أتباع عبد الله بن أباض التميمى، والصفرية أتباع زيد بن الأصفر. وكانوا جميعا ، فى مواجهة الغنى والتترف الفاجرين ، زاهدين فى حطام الدنيا ، وقساة مع أهل الدنيا ، وأعداء للأمويين وللشيعة العلويين والزبيريين ، ويمسحون دماء هؤلاء وهؤلاء ، ودماء من ليسوا معهم ، ولا مع خصومهم من عامة الناس.

ولذلك راحوا يحاربون الشيعة والأمويين معا، طوال عهد بنى أمية. وكان الأمويون أبغض إلى الخوارج من الشيعة، ومعوية أبغض إلى الخوارج من على. فقد اتخذ للخلفاء الأمويون لأنفسهم القصور والحراس والحجاب ، ولم ينالوا الخلافة عن إجماع من المسلمين ورضا منهم.

والعلويون الشيعة يريدون للخلافة بدورهم حكما ملكيا، وراثيا يقوم على للعصبية القبلية القرشية ، ومثلهم، كان هؤلاء العباسيون الذين يعملون تحت الأرض ، ويحفرون القبور لبنى أمية ، وعهد بنى أمية . ولقد استفحل خطر الخوارج فى عهد عبد الملك بن مروان ، بالمراق ، إلى أن قضى عليهم الحجاج بن يوسف الثقفى ، وإلى عبد الملك على المراق ، ثم عادوا إلى الظهور والقوة فى عهد مروان بن محمد ، آخر الخلفاء الأمويين ، فجعلوا بنهاية الدولة الأموية ، مع الشيعة والعباسيين والموالي .

•

وطوال عهد خلفاء بنى أمية ، نشبت الحروب الأهلية بين الأمويين والخوارج ، والشيعة ، والزبيريين ؛ وبين الخوارج والشيعة ، وبين قبائل الشمال المضربين وقبائل الجنوب اليمنيين ، وبين العرب والموالي ، إلى أن انفجرت العاصفة الكبرى ، واحتشد فيها الشيعة والفرس ، يقودهم العباسيون ، فكانت نهاية دولة بنى أمية ، ولم تقو هذه الحروب الأهلية ، بسبب السياسة ، أو المخالفة فى المعتقد ، أو المطالبة بالخلافة ، فى تاريخ بنى أمية ، سوى سنوات قليلة متتالية .

الخوارج قاتلوا معاوية ، وابنه يزيدا الأول ، وقتلوا عبد الملك بن مروان ، ثم هدأوا أمنين إلى حد صر بن عهد العزيز ، ثم عادوا إلى الصراع مع الأمويين ، فى أواخر الدولة الأموية . وكانت الحرب سجالا بين الخوارج والأمويين يهزمون مرة ، ويتصرون مرة ، ليهزموا مرة أخرى . ولقد تحالف الخوارج أحيانا مع الزبيريين ، ضد الشيعة والأمويين معا .

والشيعة قاتلوا يزيد بن معاوية لقتله الحسين بن على (فى كارثة كربلاء) انتظر على معاوية لنقضه العهد مع أخيه الحسن . وضاعف من ثورتهم تدمير يزيد للحرمين المدينى والمكى بالأحجار والنيران ، وكرات النفط المنتهية تقذفها المجانيق ، وإبادة مدينتى مكة والمدينة للجنود الشاميين . ثم قاتلوا عبد الملك بن مروان بقيادة المختار بن عبيد الثقفى للأخذ بثأر الحسين ، متحالفين مع الزبيريين ، وهزموا جيش عبد الملك بالمراق ، وأرسلوا برأس قاتله إلى ابن الزبير .

وحين استفحل أمر المختار انفسخ الحلف بين الزبيريين  
والشيعيين، وهزم جيش مصعب بن الزبير جيش المختار، وقتله مع سبعة  
آلاف من المطالبين بدم الحسين.

وقاتل الشيعة الأمويين بقيادة زيد بن علي بن زين العابدين، في  
عهد هشام بن عبد الملك، وكانوا من جند الكوفة. وحين القتال، لم يبق  
معه من جنده سوى القليل، فقتل زيد معهم، وكان قتله هو القائد الأموي  
يوسف بن عمر.

والزبيريون، أتباع جد الله بن الزبير، ظهوروا لأول مرة بمكة،  
في خلافة يزيد الأول بن معاوية سنة (63 هجرية)، وكان عبد الله هذا يرى  
نفسه أحق بالخلافة في عهد علي بن أبي طالب، وأحق بالخلافة في عهد  
معاوية، فأمه أسماء بنت أبي بكر، وخالته عائشة رضي الله عنها، ولقد  
ظل يعمل لذلك اليوم منذ أن نقض معاوية عهده مع الحسن، وأخذ البيعة  
بالخلافة من بعده لابنه يزيد، إلى أن قتل يزيد الحسين في كارثة كربلاء،  
عندئذ دعا ابن الزبير لنفسه، ولقيت دعوته نجاحا عظيما في بلاد المغرب  
والمراق. ولقد عكر الزبيريون صفو الدولة الأموية منذ غزوها  
لمكة والمدينة، طوال عشر سنوات، إلى عهد عبد الملك بن مروان، وقتل  
وهو يقاتل في شجاعة نادرة.

وروح للعصية بين القبائل العربية ظهرت عقب وفاة يزيد بن  
معاوية، وانتقل الخلافة إلى مروان بن الحكم، وظلت مستعرة بين القبائل  
المضرية والقبائل اليمنية، أو بين الشمال والجنوب، طوال ما يقرب من  
ثلاثين سنة إلى عهد الخليفة صمر بن عبد العزيز، فقد سكنت في عهده  
الفتن، مدة سنتين وسبعة أشهر، هي فترة خلافته، ثم عادت لتستعر من  
جديد بين عرب الشمال والجنوب، إلى نهاية دولة بني أمية، وكانت من  
حوامل نهايتها الدامية.

والموالى الذين خضعوا للإسلام بالإسلام، أو بالطاعة والجزية،  
حتى وإن أسلموا، أزعجهم تعصب الأمويين للعرب والعربية، ونظرتهم  
إليهم نظرة احتقار وازدراء، لاعتقادهم أنهم أفضل الأمم، وأن لغتهم  
أفضل اللغات، فثار في الموالى روح للشعوبية، وانتهزوا الفرص لتأييد

كل معارض للأمويين من القزيريين والخوارج والشيعة ، ولم يهدأوا إلا فترة وجيزة في عهد عمر بن عبد العزيز ، عادوا بعدها لثوراتهم ضد الأمويين ، وتأييدهم لمعارضيههم. وأحسن العباسيون الاستعانة بهم في خاتمة المطاف.

والمؤرخون يرجعون أسباب سقوط الخلافة الأموية إلى أسباب أربعة: أولها تولية العهد لاثنيين ، فقد ألقت هذه الطريقة بذور الشقاق بين أفراد البيت الأموي ، وأورثت قلوبهم الحقد والبغضاء ، فالسابق من ولى العهد يعد إلى إقصاء الثاني من بعده ، ليجعل ولاية العهد لابنه. ولقد كادهم في ذلك القواد، والعمال، فشاعت روح الصراع بين القواد ، والعمال ، والولاة ، في حواضر الدولة الأموية.

وأول من سن هذه السنة هو الخليفة الأموي مروان بن الحكم. وثانيا: ظهور روح العصبية بين القبائل العربية ، إثر وفاة يزيد بن معاوية ، الخليفة الأموي الثاني ، فقد ظهر الصراع السياسي والحربي ، لأول مرة بين اليمانيين من أهل اليمن ، والمضريين من أهل الحجاز والشام ، أي بين عرب الشمال ، وعرب الجنوب. ولما كان هذا الصراع إلى أرض الأندلس، وكان هذا الصراع فيما بعد للسبب الأول في للقضاء على الوجود العربي بالأندلس.

ثالثا: انغماس بعض الخلفاء الأمويين في الترف مثل: يزيد بن معاوية، ويزيد بن عبد الملك ، والوليد بن يزيد بن عبد الملك .

رابعا: حين ولى معاوية بن أبي سفيان خلافة المسلمين الأموية ، قال برضا وزهو : أنا أول الملوك. وفي ظننا أنه كان يدرك أن خلافته لم تكن خلافة شوري ، وإنما كانت خلافة قهر بالكيد والحيلة ، والسياسة والسيف ، والغلبة ، وأنه لم يجعلها من بعده شوري ، فسوف يجعلها ملكية تورث ، وتتقنع بقناع الخلافة ، وسوف تكون من بعده خلافة قهر وراثية ، تترك ما وراء بلاد الفرس إلى حدود الصين ، وما بعد بلاد مصر إلى شمال الأندلس، وتسمى لأن تورث عرش بيزنطة، وتورثها بجيوش تتحرك تحت راية الجهاد لنشر الإسلام، على حين تجبى قسور الخلافة أقيام وغنائم الحروب ، وخزائن البلاد المفتوحة، وزكواتها ، وعشورها وضرائبها، من حدود الصين إلى جبال البرانس، إلى بيت المال في دمشق.



ولم يكن ثمة فرق يذكر في هذا البيت بين مال بيت المال ، وبيت مال الخليفة ، فالخليفة هو الأمر الوحيد، والمراتب الوحيد، لبيت المال، ويتداوله من بعده الخلفاء خليفة إثر خليفة ، فهو الملك الإمام ، أو هو الخليفة السلطان للدنيا والدين.

ولم يكن معارضو الخلافت الأموية بخير منها ، فهم أيضا يطلبونها، لتكون لهم، هي وبيت المال ، ويريدونها مثلهم خلافت وراثثة إمامية ، يستوى في ذلك الشيعة والزيدون ، تاركين للخوارج الحلم بخلافة شورى وخلافة إمامية للدنيا والدين، إن وجدت رجلها مرة مثل عمر بن عبد العزيز، فلن تجده مرات مثل سائر خلفاء بني أمية. وفي هذه المرات سب تركب للخليفة ومعارضوه معا، وبذلك الروح الخلافة ، عشرات المذابح بالحروب الأهلية، فلم تكن الشورى قد وجدت طريقها الشرعي الكامل بعد، بالانتخاب الحر لكل المواطنين، لاختيار حاكم لا إمام، حاكم يرعى مصالح الناس ، ويسعى للعدل، لشعب أفراد مواطنين في دولة ، لا رعايا في خلافة .

وويل لأمة يعتقد حاكمها ، بعد الخلفاء الراشدين ، ومحنة عثمان وعلي ، أنه حاكم للدنيا وإمام للدين. ويل لحاكم يسعى به لبعض إلى الإمامة، فيحمل أوزارها حيا وميتا ، كما قالها العاقل للمريض معاوية الثاني بن يزيد، وحفيد معاوية بن أبي سفيان.

حين قامت الخلافة العباسية ، أعلنت على إسمان أبي العباس السفاح ، أنها ستحكم بالعدل . وتقيم الشرائع ، وكانت في حنفيتها بعنفوان الثائرين ، وعاشت في مأمن نسبي من أصحاب الفرق والمذاهب ، طوال ربع قرن ، إلا ما كان من صراعات بين الأبطال للفرس والعرب ، الذين اشتركوا معاً ، وفرضوا الخلافة العباسية فرضاً بالسيف والسيوط ، والتعذيب والقتل ، إلى أن جاءت خلافة المهدي الخليفة العباسي (158 - 169 هـ - 775 - 785م) عندئذ انقضى عهد الشدة والقمع ، وبدأت فترة انتقال إلى عهد الاعتدال واللين ، وعندئذ اكتشف الصامتون المنتظرون أن العدل لم يتحقق ، وأن الشرائع لم تقم ، وأن حكم خلافة قهر آخر قد سيطر ، وأن الدين لم يكن إلا شعاراً رفعه بنو العباس ، ليستندوا إليه في حكمهم ، ويقيموا خلافة وراثية ، أو حكماً اتوقراطياً ، من ألوان حكم الأسر الحاكمة التي سادت العالم الإسلامي ، منذ بدء الخلافة الأموية .

وبرغم إعادة المهدي للأموال التي كان قد صادرها أبوه : أبو جعفر المنصور ، إلى أهلها ، وإطلاقه سراح العلويين الذين كان قد حبسهم أبوه ، وعطوه عنهم . وبرغم إخفاق المهدي الأرزاق عليهم ، وإفراجه عن أكثر المسجونين ، فقد نشبت في عهده الثورات ، منذ للعام الأول لحكمه الخلفي .

في مصر ثار أهل الحوف قرب بليس ، وقتلوا عامل المهدي عليهم ، ودامت هذه الثورة طوال عشر سنوات . ولم يتمكن الفضل بن صالح بن علي العباس من القضاء عليها ، إلا بعد وفاة المهدي .

وفي بلاد الشام ثار عهد الله بين مروان بن محمد الأموي سنة 161 هـ ، ونجح جيش الخليفة العباسي في هزيمته ، وأسرته ، وحبيسه ، ثم أفرج المهدي عنه ، وأخفق عليه الأرزاق عملاً بمياسة سيف المعز وذمبه .

وفي الجزيرة بشمال العراق ثار عهد السلام بن هشام اليشكري ، واشتدت شوكته ، ولكنه هزم وقتل في قيسرين .

وفي الموصل ثار ياسين التميمي ، واستولى على لكثير ديار ربيعة ومضر ، إلى أن حلت به الهزيمة.

وكانت أشد هذه الثورات خطرا ، وأقواها بغيا ، ثورة الزنادقة ، بالرأى ، وبالذعوة إلى نوع من الديمقراطية للحرية مطلقة ، وبالمسيح أحيانا ، وقد استمرت ثورة الزنادقة تنخر في جسم الدولة العباسية ، إلى نهاية عصر الخلافة العباسية ببغداد.

وفي عهد الخليفة الهادي (169 - 170هـ - 785 - 786م) ثار الزنادقة والخوارج ببلاد الجزيرة شمالي العراق ، وتمرد العلويون ، وأطّل بقايا بني أمية المستترين برعوسهم ، وراح الهادي يمثل بهم وينكل ، كلما وقع أحدهم تحت يده.

وفي عهد الخليفة هارون الرشيد (170 - 193هـ - 876 - 809م) ، تفجرت الثورات.

ثار الخارجي الوليد بن طريف الشامي الشيباني بالجزيرة ، وانتصر على جيوش الرشيد أكثر من مرة ، وقتل والي نصيبين ، وحاث فسادا في أرمينية وأذربيجان ، ثم عاد إلى الجزيرة وعبر نهر دجلة ، حتى وصل إلى حلوان ، فتصدى له قائد الرشيد يزيد بن مزيد الشيباني ، بطّل موقعة "الراوندية" . وهزم الوليد وجيشه . وكان الوليد الثائر قد رمى الخلافة العباسية بالرشيد ، بالجور والظلم ، وأعلن أنه سيخلص المسلمين من هذا الجور والظلم ، لكنه قتل في المعركة .

وفي إفريقية ، استمرت قبائل البربر تتنازع السلطة العباسية بالمغرب طوال أربع سنوات ، تحت راية الأدارسة ، إلى أن هزمهم هرثمة بن أعين قائد الرشيد . ولم يجد الرشيد بدا من إقامة دولة حاجزة بينه وبين الأدارسة في المغرب ، هي دولة الأغلبية بتونس ، لكن هذه الدولة مالبثت أن استقلت بدورها عن الخلافة العباسية ، ولتخضع من القيروان عاصمة لها ، ولم تعد تابعة للعباسيين إلا بالاسم فقط .

وفي سوريا ، استمرت المنازعات القديمة بين البغيين والمضريين . وصارت دعشق مسرحا لحروب أهلية بين الفريقين ، ثم عادت للظهور لتستمر الحروب الأهلية بين الفريقين

طوال عشر سنوات ، إلى أن تمكن موسى بن يحيى البرمكي والى الشام من عقد الصلح بين الفريقين .

وفي خراسان ثار أهل خراسان على سياسة الظلم والفساد واغتصاب الأموال ، التي كان يمارسها والى خراسان : على بن عيسى بن ماهان . وكان ابن ماهان يسكت الرشيد ويخدعه عما يفعله بأهل خراسان ، بالهدايا والطرف ، إلى أن لبى الرشيد استغاثة أعيان خراسان ، فخرج لحربه وعسكر بالري ، لكن والى خراسان خدع الرشيد مرة أخرى بهداياه ، وراح يذلل بمن استغاثوا بالخليفة . وعندئذ ثار رافع بن لبث بن نصر بن سيار ، وقتل عامل ابن ماهان على سمرقند ، وقتل عيسى عامله سمرقند . وهجم رافع بأهل سمرقند على قصر والى خراسان وأميرها على بن ماهان واستولى على ماله . فهرب ابن ماهان ، وعندئذ فقط أرسل الرشيد بقائده هرثمة بن أحن ، فقبض على ابن ماهان ، وأتباعه ، وصادر أموالهم . لكن رافعا لم تهدأ ثورته ، مستهدفا الاستقلال بخراسان عن الخلافة العباسية ، فخرج الرشيد بنفسه لحرب رافع ، لكنه مات في الطريق بطوس ، واستمر رافع على ثورته ومناهضته للخلافة إلى عهد المأمون .

وفي عهد الرشيد ، تخلص الرشيد من سيطرة الأسرة البرمكية على الخلافة ، وعلى الدولة ، ومن ميلهم المعسكر للعويين المنازحين للعباسيين ، والمطالبيين بالخلافة ، وبذلك التخلص رجعت قوة الجبهة العباسية في مواجهة الجبهة العلوية ، وكفة للعرب على كفة الفرس في الدولة .

ولم يكن النزاع فيما بعد ، بين الأمين العربي الأم ، والمأمون الفارسي الأم ، سوى إعادة وتصعيد للنزاع بين العرب أنصار الأمين ، والفرس أنصار للمأمون .

واستمر هذا النزاع طوال عهدي الأمين ، والمأمون ، إلى أن أدخل الخليفة المعتصم العنصر التركي المسلم إلى ملحة الصراع ، ليكونوا أحوالا للعباسيين ، فكفوا وبالا على العباسيين ، والعويين معا ، وعلى الفرس والعرب معا ، وعلى الخلافة نفسها ، فبالت لألقاء أنفسهم أسرى في قصورهم ، وتحت رحمتهم .

وفي عهد المأمون (198 - 218 هـ / 813 - 833م) ، انسلخت بلاد تهامة بجزيرة العرب عن الخلافة العباسية ، أكثر من ثلاثة قرون ، فقد

أرسل المأمون إليها بـحمد الزياتي وألها عليها، ليقتضى على المتشيعين بها  
قتل العاصمة زييد، وأصبح أشبه بملك مستقل ، يتوارث أبناؤه وأحفاده  
الحكم من بعده في بلاد تهامة، وكانوا في الوقت نفسه يؤدون الخراج  
للعباسيين ، ويقيمون الخطب في الجمع باسم العباسيين . وتملكت بذلك  
بلاد تهامة عن الدولة العباسية.

وفي اليمن ، نجح الزياديون في عهد المأمون في الاستقلال  
باليمن، مثلما استقل الأدارسة بالمغرب، والأغلبية بتونس، في عهد الرشيد.  
وكان المنسلون جميعا عتوين .

وفي العراق استمر نصر بن شبث، نصير الخليفة الأمين ، بعد  
مصرع الأمين، في شق عصا الطاعة على الخليفة المأمون ، لاتخاذ  
الخراسانيين دون العرب أنصارا له . وقد سبر المأمون بعد مصرع الأمين  
قائده طاهر بن الحسين لمحاربة نصر بن شبث. وولى العراق الحسن ابن  
سهل . فأحرزت جيوش نصر النصر على قائد المأمون ووليه معا، إلى  
أن قدم المأمون إلى بغداد ، فحاصرت الجيوش نصرا حتى هزمته، بعد أن  
حارب جيوش المأمون طوال خمس سنوات .

وعلى طريق البصرة ، أفسد الأمن على المأمون أخلاط من الزط  
الهنود، عرّفوا بالنور ، والفجر ، وقطعوا الطريق على طول سواحل  
الخليج الفارسي، واستولوا على البصرة . وفشل قواده قلندا بعد قائد في  
قمع فتنة الزط طوال عهد المأمون ، فقد كانوا يعيشون في المستنقعات  
حول البصرة.

وفي مصر ثار المصريون على العباسيين سنة 210 هـ. فأخذ  
عبد الله بن طاهر ثورتهم ، واستولى على القسطنطين ، ولم يلبث المصريون  
أن عادوا إلى الثورة ، بعد عودة بن طاهر إلى بغداد ، وساند العرب من  
أنصار الأمين ثورة المصريين . وفشل الأتشيون ، قائد المأمون ، في قمع  
ثورة المصريين. فتحرك المأمون بنفسه لقمع هذه الثورة ، ونجح في قمعها  
بعد سنين .

وفي العراق قامت ثورة أخرى بزعامة أبي السرايا الداعية  
العتوي وهزم جيوش الحسن بن سهل . فوجه الفضل بن سهل وزير  
المأمون إليه هزيمة ابن أعين على رأس جيش كبير قمع به حركة أبي  
السرايا.

ورفض هزيمة ابن أعين تولية للخليفة على الشام والحجاز مكافئة له، وتوجه إلى مرو حيث كان المأمون يقيم، وأطلعه على ما في الدولة من فساد، وعلى سوء سياسة وزيره الفضل في البلاد، فكان مصيره حبس المأمون له، ثم قتله.

وأغضب قتل المأمون لهزيمة رجال الجيش في بغداد، فثار أهل بغداد على وإبهم الحسن بن سهل، وخطبوا المأمون، وأقاموا معه إبراهيم بن المهدي خليفة، فظل خليفة بها طوال عامين. واضطر المأمون الذي كان قد بايع على الرضا العلوي بتوليته العهد إلى إرضاء الهاشميين. ودس لوزير الفضل بن سهل من قتله بالسم، ثم دس لولي عهده 'على الرضا'، من قتله بالسم، ولذلك استقبل أهل بغداد المأمون عند عودته إليهم بالترحاب. وهرب إبراهيم بن المهدي، إلى أن عفا عنه ابن أخيه المأمون، وأسند المأمون الوزارة إلى الحسن بن سهل بعد أخيه الفضل، وتزوج من بنته بوران.

وفي عهد المعتصم (218 - 227 هـ / 833 - 842 م)، استمرت فتنة القول بخلق القرآن التي حمل عليها المأمون الناس، وكان المأمون قد اعتنق مذهب الاحتزال، وزاد عليه المعتصم المعتزلي في إلحاق الأذى بالعلماء الذين رفضوا القول بخلق القرآن، فلم يبق عالم أو فاض لم يتعرض للضرب أو لخطر الضرب بالسياط والتعذيب والسجن والقتل، إذا لم يقل بخلق القرآن.

وكان المأمون قد زوج ابنته أم الفضل، إلى علي الرضا، فأنجبت له ابناً هو الجواد. وخشى المعتصم أن تحدث الجواد نفسه يوماً بالمطالبة بالخلافة، لأنه عباسي الأم والجد، علوي الأب والجد، فدس له من قتله بالسم.

وخرج العلوي محمد بن القاسم بن الحسين بن علي على المعتصم، ورحل عن الكوفة إلى خراسان، فرأوا من بطش المعتصم بالعلويين، فالتزم إليه أكثر أهلها، وحارب جيوش المعتصم معركة بعد معركة إلى أن تدخل عبد الله بن طاهر لدى المعتصم. وأخذ الأمان لمحمد بن القاسم. ولكن المعتصم لم يلبث أن نقض أمانه له، وحبسه في سامراء، ثم قتله بالسم.

وكان الزط مستمرين في فتنتهم لا يزالون بجنوب العراق ، فوجه المعتصم إليهم قائد العريبي : عجيف بن عنبسة . قطع المياه عن الأهوار (المستنقعات) التي يعيش بها الزط ، وانتظر إلى أن جفت ، وقابلهم بمسعة أشهر ، وأرغمهم على طلب الأمان ، فاستسلم له 27 ألفا بين رجال ونساء وأطفال ، وحصلهم عجيف في السفن إلى بغداد ، وأمر المعتصم بنفيهم إلى بلاد آسيا الصغرى ، فأمرهم البيزنطيون ، ونفهم بدورهم إلى أوروبا ، فعرفوا بها باسم النور ، وأقاموا خارج المدن .

ولأن أم المعتصم كانت تركية ، ولأنه لم يعد يأمن للخراسانيين ، ولا للفرس ولا للعرب ، فقد أقام له حرسا خاصا من الترك ، وكون جيشا كبيرا من الترك ، فأزعجوا أهل بغداد . وأخذ المعتصم على جنده الأتراك الأموال والهبات والهدايا ، فثار القائد عجيف عليهم وعلى المعتصم ، ودير للخلاص من المعتصم نفسه . وأخرى العباس بن المأمون بالخروج على عمه معه ، والمطالبة بعرش أبيه ، واتفق القواد العرب على قتل المعتصم وقائديه التركيين : الأكشيين وأئنداس ، حين توزيع الغنائم في موقعة صورية .

ومهر العباس بن المأمون ليلة مع المعتصم ، وقد لعبت الخمر برأسه ، فباح للمعتصم بالمؤامرة ، فقبض على مدبريها وقتلهم ، وقتل معهم عجيف ابن عنبسة ، ومنع الماء عن العباس بن المأمون حتى هلك عطشا . وكانت النتيجة أن المعتصم ازداد سقوطا في أيدي قواده الأتراك ، وأدى هذا السقوط إلى إقصاء قواد العرب ، وقواد الفرس ، من الجيش العباسي تدريجيا ، وأسقطت أسلواهم من ديوان المعطاء .

وفي عهد المعتصم اشتعلت ثورات الموالى ومنها ثورة : بهاسك الخرمي ، وثورة المازيار والأكشيين . وكانت ثورة بابك في بلاد الفرس ، وبلغ جيشه عشرين ألف فارس ، عدا الرجالة .

وهزم جيش بابك جيوشا كثيرة للمعتصم ، وقتل كثيرا من قواده ، واحتل مدنا وقرى عديدة ، وقتك بالناس بلا رحمة ، وبلغ عدد ضحاياه مليون شخص من الرجال والنساء والأطفال ، وكانت قد انضمت تحت رايته رايات الزرادشتيين والمانويين والمزدكيين ، وأقصر أبى مسلم الخراساني . وكانت غايتهم جميعا تحويل الملك من العرب إلى الفرس ،

ومن المسلمين إلى المجوس، وتمكن المعتصم من القضاء على هذه الثورة بالأكثر الك.

وأعقبت هذه الثورة ثورة الأفشين والمازيار ، وكان الأفشين رئيسا للمحصرة ، والمازيار رئيسا لجبال مشروين، في أطراف بلاد طبرستان، وكلنا يسعى إلى الاستقلال بالشرق الإسلامي عن الخلافة . وإقامة الفرس من جديد . مثل بابك.

وقد تمكن عبد الله بن طاهر من القضاء على ثورتيهما . وقتل الأفشين مسوما ، ودفن ، ثم أخرجت جثته وصليت . وقتل المازيار . وفي بلاد الموصل ثار جعفر الكردي بالأكرد ، ضد المعتصم ، وضد الترك ، فأرسل المعتصم جيشا لقتاله ، في العام الذي توفي فيه ، ولم يتمكن القائد التركي من الخلاص من جعفر ، (لا بدس أحد أصحاب جعفر عليه، فقتله.

وفي عهد الواثق (227 - 232 م — / 742 - 847م) ، ثارت القيسية بدمشق، وحاصروا وإلى دمشق، وهزم رجاء بن أيوب قائد جيش الواثق الثائرين، في معركة مرج راعط ، وقتل منهم ألفا وخمسة . وفي بلاد الحجاز ثار بنو سليم . ونهبوا الأسواق ، وقطعوا الطرق، وهاجموا جنود وإلى المدينة . إلى أن قضى عليهم جيش تركي للواثق ، بقيادة بعا الكبير، قتل منهم خمسين رجلا، وقبض على الفرجل، وحبسهم بالمدينة.

وفي عدن ثار بنو مرة فتوجه إليهم بعا الكبير ، وقمع ثورتهم وانتزع المحبوسون بالمدينة الفرصة، فحلوا للخروج من سجنهم، فأحاط بهم أهل المدينة، وقتلهم عن آخرهم.

وفي العراق دعا الفقهاء إلى عزل الواثق ، وقادهم أحمد بن نصر، وحددوا ليلة الهجوم على المعتصم وقواده . واتفقوا على أن يكون بدء التنفيذ بدق الطبول على ضفتي النهر ، وفي الليلة التالية يكون الهجوم، لكن فريق الضفة الشرقية ، سكر ذات ليلة ، ودق الطبول قبل الموعد المحدد، ولم يجاوبهم فريق الضفة الغربية، وعندئذ انكشفت المؤامرة ، وقبض على أحمد بن نصر وأعواله . ودارت المناظرة بين الخليفة وبين أحمد بن نصر حول خلق القرآن . وكان مصير أحمد بن نصر وأعواله القتل معا.



بدأ عصر الخلافة العباسية التركي بعهد المتوكل بالله (232 - 247هـ) وقد بدأ المتوكل عهده بإعادة السنة ، وإيقاف القول بخلق القرآن، لكنه لم يلبث أن أساء إلى نفسه بالعنف الذي عامل به العلويين، وأثار المشاعر بهدمه لقبر الحسين بن علي وما حوله ، وتحويل الأرض المحيطة به إلى مزرعة ، وسوق من يزورون مكان القبر إلى سجن المطبق ، وتوجيه الإهانات إلى العلويين في المساجد، والطرقا .

وراح المتوكل يحلم بنقل الخلافة من بغداد إلى الشام، وجعل العرب صادا للخلافة ، لكن الوقت كان قد فات لتنفيذ هذا الحلم. فقد فتك الترك به، بالتعاون مع ابنه المنتصر بالله .

وبعد المتوكل غرقت الخلافة العباسية التركية الفتن والثورات . وكان أخطرها ثورة الزنج الطاحنة في عهد المعتصم بالله (256 - 279هـ). وكان الزنج من عبيد الفريجية ، وكانوا يعملون بالخدمة بإزالة الملح من الأراضي ، ولم يكونوا يتقاضون من الأجر شيئا . ويقفون في كل يوم بقليل من الدقيق ، والتمر ، والسويق ، وكانوا على أتم استعداد للخروج على سادتهم، وولاء الأمر عليهم، وينتظرون العثر على قائد . ووجد العبيد الأفريقيون هذا القائد في شخص العبد الأفريقي علي بن محمد، من أهالي الطلائقان، وكان قد ادعى أنه من نسل علي زين العابدين، وادعى أن العنبة الإلهية قد أرسلته لإنقاذ للعبيد . ورحل هذا القائد على بن محمد مع العبيد الفارين تباعا من القرى والمدن إلى المستنقعات الممتدة بين البصرة وواسط ، وأطلق علي بن محمد للدولة العباسية ، في عهد الخليفة المعتصم بالله طوال 14 سنة.

وقبل هذه الثورة كان علي بن محمد يطوف بالعراق والبحرين وهجر، ويتصل بالعبيد داعيا إلى تحريرهم ، فالتفوا حوله، واستقروا بالبصرة وضواحيها ولحق بهؤلاء العبيد عبيد آخرون غير الفريجين، فروا من سادتهم وولاتهم . ومن الجوع والظلم ، والحرمان من الحرية . وقاد علي بن محمد أتباعه، واستولى على البصرة ، وذهب كثيرين من أهلها، وخرب مسجدها السنن ، واحتل واسط، ورامهرمز . وفشلت جيوش المعتمد التركية في القضاء عليهم . وراحت جيوش الزنج تفسد غارات حرب العصابات في العراق وخوزستان والبحرين ، بشكل منظم، وفي جماعات غايتها السلب والنهب . ودامت الحرب بين جيوش العباسيين

والزنج بين علمي (255 - 270) إلى أن قضى عليها القائد الموفق شقيق الخليفة المعتمد ، وقد انتقم أحد الزنوج للثلاثين من الموفق ، باغتياله ، بسهم وجهه إلى صدره ، وفر هاربا إلى رامهرمز ، فقتلعه العباس بن الموفق وقتله نارا لأبيه .

وبلغ عدد القتلى في المعارك بين الزنوج ، وجيوش المعتمد بالله ، مليوناً وخمسمائة ألف قتيل ، من العبيد والعبادة معا . وعظمت رأس الثائر علي بن محمد على رمح ، وطيف بها في طرقات بغداد ومسط معالم الزينة . وفي القصور راح الشعراء يشيدون بهذا الانتصار .

وفي عهد الخليفة المعتضد بالله (279 - 289 هـ / 892 - 902 م) انزعج الناس لمنع المعتضد الوراثين من بيع كتب الفلاسفة ، والمفكرين ، ومنع القصاصين من القصاص للناس في المساجد والطرقات .

وفي عهد المعتضد بالله ، ثار حمرو بن الليث الصفار ، زعيم الصفاريين واستولى على كثير من بلاد الفرس ، وأسس الدولة الصفارية (245 - 290 هـ) .

وثار حمدان قرمط بالكوفة .

وثار أبو سعيد الخبائي القرمطي في البحرين .

وثار ابن حوشب القرمطي في اليمن .

ودعا الثلاثة إلى المذهب القرمطي . وقد دامت الثورة القرمطية

أكثر من مائتي عام .

وثار نصر بن أحمد الساماني ، وأسس الدولة السامانية في بلاد

ما وراء النهر (261 - 389 هـ) .

وتوالى مسلسل الدول المستقلة ، المنبثقة من ثورات الخلافة

العباسية للاستقلال بأراضي وشعوب هذه الدولة ، وإعادة الأمور إلى أسوأ مما كانت عليه قبل الخلافة .

السايس  
افضل

أئمة الاسلام  
بين اضطهاد الفرق وخلفاء القهر



في القرنين الثاني والثالث الهجريين ، الثامن والتاسع للميلاديين ، عاش أئمة أهل السنة الأربعة : أبو حنيفة النعمان ، ومالك بن أنس ، والشافعي ، وأحمد بن حنبل .

في هذين القرنين كان الخوارج هم إرهابيو زمانهم ، مثل إرهابيي زماننا ، في تنظيمات للجماعات الإسلامية ، وكانوا يمارسون إرهابهم فكريا ، واعتقالات ، وحروبا أحيانا ، يكسبونها مؤقتا ، ويخسرونها دائما ، ضد غير المسلمين ، وضد المسلمين الذين لا يشايعونهم في أفكارهم ، من السننيين والشيعة ، ومن عامة المسلمين ، المخلصين فقط لفرائض الإسلام وأركانه ، دون الدخول في جدل العقائد ، والحكم ، والسياسة ، وضد السلطة الحاكمة للدولة المسلمة ، وضد الفقهاء والوعاظ ، وأئمة الفتوى في العواصم الإسلامية ، تماما مثلما يحدث في زماننا في القرن الخامس عشر الهجري ، العشرين الميلادي .

وفي هذين القرنين ، كانت السلطة الحاكمة في الدولة الإسلامية ، أموية كانت ، أو عباسية ، تمارس بدورها الرد على عنف الإرهابيين بعنف مقابل ، والحوار بالجدل مع جدل الإرهابيين في العقائد ، والرد بالتكفير على الاتهام بالتكفير . وتمارس أيضا مثل الخوارج تماما الاضطهاد للفقهاء والقضاة والوعاظ ، وأئمة الفتوى في العواصم الإسلامية ، وتشن الحروب ضد دعاة الفرق الإسلامية ، والسلالات القرشية الأخرى ، المناوئة لسلطة أخرى قرشية حاكمة ، من العلويين ، والعباسيين ، ثم من العلويين ، والأمويين ، والشيعة الفارسيين .

وبين عنف هؤلاء وهؤلاء ، الفكري والجسدي والاجتماعي ، عانى الأئمة الأربعة الكبار ، من الخوارج ، لأنهم لا يرضون عن معتقداتهم ، ويدينون وسائل عنفهم ، ومن السلطة لأنهم لا يؤمنون بولاءهم لها ، ولا يجارونها في سياساتها ، ولا يعملون في خدمتها ، كي يحققوا حلف السياسة والدين ، ضد المنوئين للسلطة ، وضد الغلظيين على السلطة من عامة الناس ، تماما مثلما يحدث في زماننا ، في العقود الأخيرة من القرن العشرين .

# محنة الإمام أبي حنيفة

في القرنين الهجريين الأول والثاني، عاش إمام العقل والقياس ،  
فيما لم يرد به نص قرآني، أو حديث مقطوع بصحته: أبو حنيفة النعمان ،  
مفتي الكوفة، وكان هواه علويًا في الباطن والعلو . وعاصر أبو حنيفة  
عصر بني أمية ، وأوائل عصر بني العباس ، وعاش في العصرين  
محنتين قاسيتين.

-1-

لم يكن "أبو حنيفة النعمان" يجلس في مجلس شيخه الراحل حماد  
بن سليمان، ففيها مفتيًا بمسجد الكوفة ، حتى خرج زيد بن علي زين  
العابدين ، على الخليفة الأموي "هشام بن عبد الملك" ، مقرعًا ثورة من  
ثورات العلويين ضد الأمويين . وكانت عواطف أبي حنيفة كالسليل وفقيهه  
مع العلويين المضطهدين من بني أمية ، فرأى كنفية مفت أن الثورة على  
ملك الأمويين أمر جائز شرعًا، إذا كانت الثورة من إمام عادل، مثل الإمام  
زيد بن علي."

ويرى للتاريخ أن أبا حنيفة قال لتلاميذه عن ثورة هذا الإمام :  
"ضاهي خروجه خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر". فقيل له:  
"لم تخلف عنه؟" فقال : "حبستني عنه ودافع للناس (ضدي) . عرضتها  
على ابن أبي ليلى (قاضي الكوفة) ، فلم يقبل . فخفت أن أموت مجهلاً  
(دون أن أurd ودفعني إلى الفاتيين)".

وفي مرة أخرى قال أبو حنيفة ، في معرض الاعتذار عن عدم  
خروجه مع الثائر زيد : "أو علمت أن الناس لا يخذلونه ، كما خذلوا أباءه،  
لجأهت معه أنه إمام حق، ولكن أعيته بمالي". وبعد أبو حنيفة إليه بعشرة  
آلاف درهم ، قاتلاً لرسول زيد إليه : "إسقط عني له".

ولقد انتهت ثورة الإمام "زيد" بمقتله سنة 123 هجرية ، وثورة  
ابنه "يحيى" من بعد بمقتله سنة 125 هجرة ، وثورة حفيده عبد الله ، بمقتله

سنة 130 هجرية ، واستغرقت هذه الثورات عشر سنوات ، عانى فيها العلويون من الأمويين العذاب ، وتكبد فيها الأمويون من العلويين المشاق . وكانت ثورات يؤزرها العلماء والفقهاء ، في السر بالمال ، وفي العلن بالتأييد . ثم حان وقت حصاب الأمويين لهؤلاء العلماء والفقهاء بالعراق ، بعد القضاء على ثورات العلويين للزيديين (نسبة إلى زيد بن علي) في عهد مروان ابن محمد آخر الخلفاء الأمويين .

وكان الحصاب اختباراً من "ابن هبيرة" ، والسي الأمويين على العراق ، لولاء العلماء والفقهاء لابن أمية . وقبل علماء الكوفة : ابن أبي ليلى ، وابن شبرمة ، ودلود بن هند ، ومروان ، إعلان ولائهم للعلوي لبني أمية ، بقبولهم أصلاً منتفى في ديوان "ابن هبيرة" لينفوا الريب عن أنفسهم ، ويتخلصوا مما تورطوا فيه ، متخذين للتقية درنة لهم ، في وقت اشتدت فيه الفتن بالعراق ، وكانت أن تصير فيه فارس وخراسان للعباسيين ، وقد راحت جيوش العباسيين ، يؤزروهم العلويون ، تلوش بالقتال جيوش الأمويين في العراق ، وغير العراق .

ودعا ابن هبيرة إليه بأبي حنيفة في ديوان الإمارة بمدينة واسط . وعرض عليه أن يعمل له ، وعنده ، أي عمل كان ، تحققاً من ولائه للخليفة مروان ابن محمد ، إن قبل العمل معه ، أو تثبتاً من اتهامه له ، بالانحياز للعلويين ، إن أبى هذا العمل ، وأبى أبو حنيفة أن يلي عملاً لابن هبيرة ، فعاد ابن هبيرة يعرض عليه أن يجعل ديوان الخاتم تحت يده ، فلا ينفذ كتاب مهره بتوقيعه إلا من تحت يد أبي حنيفة ، وختمه له بخاتم الإمارة . لكن أبا حنيفة امتنع عن قبول هذه المهمة ، قتلًا له :

— كيف أقبل هذا العمل ؟ تأمر أنت بقتل إنسان ظلماً ، أو مصادرة ماله ، وأختمه أنا ، فيقتل هذا الإنسان ، ويصادر ذلك المال . هذا أن يكون أبداً .

عندها أقسم ابن هبيرة أمام العلماء أن يسجن أبا حنيفة ويضربه في السجن ، إن لم يقبل الخاتم . وتقدم للفقهاء الذين قبلوا للتعاون مع ابن هبيرة ، واستأذنوا الأمير في الاثفراد بأبي حنيفة ، فغادر الأمير المكان شامخاً .

وقال العلماء لأبي حنيفة:  
 - إنا نتشكك الله فلا تهلك نفسك. فإنا إخوانك . وكاننا كارهون  
 لهذا الأمر . ولم تجد بدا من ذلك .  
 فقال أبو حنيفة بإصرار:  
 - لو أرادتني أن أجد له أبواب مسجد "واسط" اسم أنخل نفسي  
 هذا الأمر .  
 فقال ابن أبي ليلى للعلماء ، ولم يكن لأبي حنيفة محبا ، ولا عن  
 فقهه راضيا:

- دعوا صاحبكم . فهو المصيب ، وغيره المخطئ!!  
 وأمر ابن هبيرة صاحب الشرطة بحبس أبي حنيفة . فحبس ،  
 وضرب أياما متتالية، في كل يوم عشرة أسواط، ليرجع عن موقفه . وبس  
 الضارب الجلد من أبي حنيفة ، فذهب إلى ابن هبيرة ، وقال له :  
 - هذا الرجل سيموت من الضرب ، وإن يعدل عن رأيه .  
 فقال له ابن هبيرة:

- فلنخرجنا من ميمنا إذا أراد الحياة .  
 وسأل الجلد أبا حنيفة أن يعدل عن موقفه ، ويعمل مع ابن  
 هبيرة ، فأبى أبو حنيفة مستعدا للاستشهاد . فعاد الجلد إلى ابن هبيرة ،  
 برأى أبي حنيفة، فصرخ ابن هبيرة ببأس، وكأنه قد خشى أن يموت أبو  
 حنيفة في سجنه، فيثور من أجله أهل الكوفة ، والموالي ، بل وأهل العواقي  
 بأسره .

- ألا ناصح لهذا المحبوس ، أن يستأجلني فأوجهه؟  
 وأخبر الجلد أبا حنيفة بما قاله ابن هبيرة . وفهم أبو حنيفة ،  
 فقال له:  
 - دعوني أخرج إذن ، واستشير إخواني وأهل بيتي ، وانظر  
 في ذلك .

فحدث أمر ابن هبيرة بإخلاء سبيل أبي حنيفة . فعاد إلى بيته ،  
 وأعد نفسه وأهل بيته للرحيل، ودوابه لسفر طويل . وهرب ليلا إلى مكة .  
 وكان هروبه في سنة 130 هجرية.



وفى العصر العباسي، قرر أبو جعفر المنصور اختبار ولاء أبي حنيفة لدولته فأرسل إليه جائزة قدرها عشرة آلاف درهم وجارية، مع وزيره "عبد الملك بن حمد". وكان لهذا الوزير رأى جيد، وفيه كرم نفس. وحمل الوزير الهدية، وذهب إلى أبي حنيفة بها، لكن أبا حنيفة رفضها، مثلما رفض هدايا "الحرّة" زوجة المنصور من قبل. واشفق عليه الوليد، فقال له مصارحاً:

- أنشدك الله . قبلها . إن أمير المؤمنين يطلب عليك حلة (يبحث لك عن سبب) ليوقع بك. فإن لم تقبل صدق عليك ما يظنه بك.

وأصر أبو حنيفة على موقفه، فقال له الوزير:

- لا عليك من المال، فقد أثبتته في بند الجوائز . لكن . قبل الجارية منى، أو .. قل صدرك لأمير المؤمنين . فقال له أبو حنيفة للوزير:

- قل له : إنى ضعفت عن التمام (أى كبرت) فلا استحل أن أقبل جارية لا أصل إليها . ولا اجترئ أن أبيع جارية خرجت من ملك أمير المؤمنين.

وعاد الوزير إلى المنصور، وأخبره بما حدث، وبما قاله أبو حنيفة. واستمع المنصور لوزيره وألزم الصمت، فما كان ليقتنع بحيل أبي حنيفة كلفه ذكي، وعيد.

وكان في حاشية المنصور من يحرضه على أبي حنيفة، من الوشاة والحاسدين والحاقدين، من رجال الدولة، بل من الفقهاء أيضاً، ويجعلونه بين الحين والحين، في ظن وشك من أقواله وفتاويه.

روى "تاريخ بغداد" أن المنصور دعا إليه أبا حنيفة ليشهد مجلساً علمياً عنده، ويشارك فيه . وكان الربيع حليج المنصور يعادى أبا حنيفة. فانتهاز وجوده في المجلس فرصة، وقال للمنصور :

- يا أمير المؤمنين . هذا أبو حنيفة يخالف جندك . كان عبد الله بن عباس يقول : إذا حلف شخص على اليمين ، ثم استثنى بعد ذلك بيوم أو يومين جاز الاستثناء . وأبو حنيفة يقول ، مخالفًا جندك : لا يجوز الاستثناء إلا متصلًا باليمين .

حينئذ سارع أبو حنيفة بقوله المنصور ، ببديهة حاضرة :  
- يا أمير المؤمنين . إن الربيع يزعم بقوله هذا ، أنه ليس لك في رقاب جندك بيعة .

فقال له المنصور بدعشة :

- كيف ؟

فقال أبو حنيفة :

- يحلفون لك حسب قوله مبايعين ، ثم يرجعون إلى منازلهم ، ليستثنون ، فتبطل أيمانهم ببيعتك .

وضحك المنصور ، والتفت قائلًا للربيع :

- يا ربيع . لا تعرض لأبي حنيفة ، فإن تقدر عليه .

وحين خرج الوزير والفقهاء من المجلس قال الوزير للفقهاء ، حانقا :

- أردت أن تشيط بدمي (أي : تقتلني) .

فقال له أبو حنيفة باسمًا ، وانقا :

- لا . ولكنك أردت أن تشيط لنت بدمي ، فخلصتك ، وخلصت

نفسى .

كذلك كان الفقهاء "أبو العباس الطومى" سبى الرأى فى أبى

حنيفة . وكان أبو حنيفة يعرف ذلك .

دخل أبو حنيفة يوما مجلس المنصور بدعوة منه ، وقد كثر الناس

فى مجلسه ، فقال "الطومى" لمن معه :

- اليوم أقتل أبا حنيفة .

والتفت "الطومى" إلى أبى حنيفة ، وقال له ، وقد ساد الصمت

والمنصور يسمع ما يقال :

- يا أبا حنيفة . إن أمير المؤمنين يأمر بأن يضرب عنق الرجل ،

لأمر لا يدري ما هو ، ليمعه أن يضرب عنقه ؟

فقال له أبو حنيفة بحضور بديهة مألوفة منه :

- يا أبا العباس . أمير المؤمنين يأمر بالحق لم بالباطل ؟

فقال الطومى بدهشة !

- بالحق طبعاً .

فقال له أبو حنيفة :

- اتفد الحق حيث كان ، ولا تمل عنه .

والتفت أبو حنيفة ، وقال هامساً لمن قرب منه :

- إن هذا أراد أن يوتقني فريطه .

•

وجاء يوم قرر فيه المنصور أن يتولى أبا حنيفة له أى عمل كان ، فبين الصريح من نيته . ودعا المنصور إليه بأبى حنيفة ، وكان سور بغداد لا يزال يبنى حولها . وعرض للمنصور على أبى حنيفة أن يلى له القضاء ، ويكون القاضي الأول للخلافة ، فإدام يعطى الناس فتاويه . فليحكم بين الناس بما يقتضى به . فقال له أبو حنيفة :

- يا أمير المؤمنين . أنا أقول برأى ، فمن شاء أخذ به ، ومن شاء لم يأخذ ، حاكماً أو محكوماً ، أو قاضياً .

يروى للحلجب الربيع بن يونس بعض ما جرى فى هذا اللقاء .

قال :

- رأيت أمير المؤمنين ينزل أبا حنيفة فى أمر توليه القضاء .

وأبو حنيفة يقول للمنصور :

- يا أمير المؤمنين . أتق الله . ولا ترع أمانتك إلا من يخاف الله . والله ما أنا بمأمون الرضا ، فكيف أكون مأمون الغضب . ولو اتجه الحكم منى طيك ، ثم هدتلى أن تفرقنى فى الفرات ، لو أن ألفى هذا الحكم ، لاخترت أن أغرق . ولك يا أمير المؤمنين حاشية يحتاجون إلى من يكرمهم فى قضائه لأجلك ، فلا أصلح لذلك .

فقال له المنصور بحة :

- كذبت . أنت تصلح .

فقال أبو حنيفة لقوره :

- قد حكمت على نفسك يا أمير المؤمنين . كيف يحل لك أن

تولى قاضياً على أمانتك ، وهو كذاب ؟

عندئذ حلف المنصور على أبي حنيفة ، أنه لا بد أن يتولى له أي عمل كان . وأدرك أبو حنيفة أن المقصود هو رقبته إن أبي هذا أيضاً ، فأراد أن يفوت غيلة المنصور عليه ، فقبل أن يعمل له ما يكلفه به إلا القضاء . فأمره المنصور بأن يتولى القيام على أمر تشييد سور مدينة بغداد ، مما يلي الخندق ، وضرب اللبن لهذا السور ، وأخذ الرجال بالعمل . وقبل أبو حنيفة هذه المهمة . ونهض بها إلى أن فرغ العمال والمهندسون من بناء سور بغداد .

وعاد المنصور يكلف أبا حنيفة بأن يعد له اللبانات المستخدمة في السور . فطلب أبو حنيفة قصبة ، أممك بها أمام المنصور وحاشيته ، وراح يعد لبانات سور بغداد ، إلى أن أتمها عدا . ورأى المنصور أنه قد تم له مؤقتاً إذلال أبي حنيفة ، فأذن له بالعودة إلى الكوفة.



وحدث أن أهل الموصل ، كانوا قد نقضوا عهدهم مع المنصور ، بالآيثاروا عليه . وكان المنصور قد اشترط عليهم أنهم إذا نقضوا عهدهم له ، حلت له دماؤهم . وجمع المنصور عنده الفقهاء الكبار بالعراق ، وفيهم أبو حنيفة . وتروى كتب المناقب قصة هذا الاجتماع . قال المنصور للفقهاء :

- أليس قد صبح أنه عليه الصلاة والسلام قال : "المؤمنون حشد شروطهم؟" فإن أهل الموصل قد شرطوا على أنفسهم ألا يخرجوا على عاملي على الموصل . وقد حلت لي دماؤهم . ومعارض فقيه بالمجلس بالقول :

- يدك مبسوطة عليهم يا أمير المؤمنين ، وقولك مقبول فيهم ، فإن صفوت فانت أهل العفو ، وإن عاقبت فيهم يستحقون . فقال المنصور لأبي حنيفة :

- ما تقول يا شيخ ؟ ألسنا في خلافة نبوة ، وبيت أمان ؟ فقال أبو حنيفة :

- يا أمير المؤمنين . إنهم شرطوا لك ما لا يملكونه . وشرطت عليهم ما ليس لك ، لأن دم المسلم لا يحل إلا بأحد معان ثلاثة . فإن أخذتهم أخذت بما لا يحل . وشرط الله أحق أن توفي به .

أفحم أبو حنيفة المنصور والفقهاء بالحجة المقنعة شرعا ، فأمر المنصور الفقهاء بمغادرة مجلسه ، ففترقوا خارجين من قصر الخلافة . وعاد المنصور يدعو أبا حنيفة إليه ، وقال له :  
 - القول في أهل الموصل ما قلت . اتصرف إلى بلادك . ولا تقت الناس بما هو شين على إمامك . فتبسط أيدي الخوارج .  
 ولجل المنصور بذلك ليزال الأذى بأبي حنيفة ، الذي يحسن التخلص من المأزق ، ويصر على قول الحق ، وتخذيل الأعوان عن نصرة الظلم . وإن ترتب على ذلك هز أصدء الحكم .

•

ولقد حدث أن أبا حنيفة أشار على "الحسن بن قطبة" ، وكان قائدا من قواد المنصور وجاء إليه طالبا للتوبة من سفكه باسم المنصور ، لدماء المسلمين ، فأشار عليه أبو حنيفة بالتوبة ، قائلا :  
 - إذا علم الله أنك نادم على ما فعلت ، ولو خيرت بين قتل مسلم ، وقتلك أنت ، لاخترت أن تقتل أنت ، على أن يقتل هو ، وتعمل مع الله عهدا ، فإن وفيت به فهي التوبة .  
 وحدث أن كلف المنصور قائده هذا ، أن يتوجه بجيشه لقمع ثورة الزعيم العلوي "إبراهيم بن عبد الله" ، فسارع الحصن إلى أبي حنيفة يستشير في أمر هذا التكليف ، فقال له أبو حنيفة :  
 - جاء إذن أوان توبتك ، إن وفيت بما عاهدت فأنت تائب ، وإلا أخذت بالأول والآخر وتشجع الحسن بن قطبة ، وذهب إلى المنصور في مجلسه ، معتذرا له عن الامتنال لأمره ، وقتل المسلمين .  
 فغضب المنصور منه ، ومسارع أخوه القائد حميد بن قطبة لإنقاذ ، بدعوى أن عقله مغلط عليه منذ سنة ، وعرض أن يسير هو بجيشه لحرب إبراهيم ، فوافق المنصور ، ثم أمر إثر خروج حميد من مجلسه بسجن الحسن ، ثم أمر بقتله ، إثر انتصاره على إبراهيم بن عبد الله .  
 وطعم المنصور أن الحصن للقتيل كان يتردد على أبي حنيفة ، فأدرك أن أبا حنيفة قد تجاوز حق النقد المجرى له ، إلى حد التحريض لقواده على عصيانه ، وقرر أن يضع ولاء أبا حنيفة له موضع اختبار أخير .

حانت للمنصور الفرصة كي يرفع أبا حنيفة على العمل معه قاضيا للقضاة ، أو ينزل به لأذى جسيما .

كان من عادة أبي حنيفة كفتيه صاحب فتوى ، وإمام أول عند الناس لفقهاء العراق ، أنه كان ينقض بالفتوى أحكاما حكم بها قضاة الكوفة ، معطيا نفسه بذلك الحق الذي تكفله في أيامنا محاكم النقض ، ليس بالحكم كقاض ، وإنما بالنظر في الأحكام كمفت . ولم يكن أبو حنيفة يتردد في هذا النقض بالفتوى ، فكان يثير بنقضه هذا ، وعلانية على الناس ، حفظة القضاة عليه ، وظنهم السوء به . وكثيرا ما كانوا يرفعون شكاواهم إلى أمير الكوفة ، فيمنعه من الفتوى حينما بالحجر عليه في الفتوى ، ثم يضطر أن يبيحها له بعد حظر ، حين ترد إلى أبي حنيفة مسائل من قصر الخلافة ليقول فيها رأيه ، يحملها ولي العهد بنفسه إلى أبي حنيفة .

وكان القاضي "ابن أبي ليلى" من قضاة الكوفة ، ومن بين المقربين إلى الخليفة المنصور ، والقبائل لهداياهم وعطاياهم . وحدث أن ابن أبي ليلى نظر في أمر امرأة مجنونة ، قذفت رجلا من أهل الكوفة ، قائلة له : يا ابن الزنايين . فأقام عليها ابن أبي ليلى الحد في المسجد ، قائمة وحدها حدين : حد لقذفها أبا الرجل ، وحد لقذفها أمه .

وبلغ هذا الحكم أبا حنيفة ، فقال علانية في مسجد الكوفة :

- أخطأ ابن أبي ليلى في حكمه على المرأة ، في ستة مواضع : أقام الحد في المسجد ، ولا تقام الحدود في المساجد . وضربها قائمة والنساء يضربن قعودا . وضرب لأبيه حدا ، ولأمه حدا ، ولو أن رجلا قذف جماعة كان عليه حد واحد . وحد لأبويه وهما غائبان ، ولم يحضرا فيدعيا . ولا حد على مجنونة .

ومبارح ابن أبي ليلى يشكوى أبي حنيفة لأبي جعفر المنصور ، لتجريحه لقضاته ، ولقضاء قضاة الكوفة ، فأسقط بذلك كرامة القضاء ،

وهيبة القضاء بين الناس . ولاشك أن أبا جعفر المنصور قد مآء، هذا التجريح للقضاء ، من فقيه مفت ، وإن كان في تجريحه على حق بين وصريح . ولعله تصاعل بينه وبين نفسه : لم لا يلى أبو حنيفة أمور القضاء إذن ، ليكون له حق للمرجعة لأحكام القضاء ، كقلض القضاء؟ وقرر فى نفسه أمرا : لابد أن يلى أبو حنيفة أمور القضاء فى بغداد والعراق .  
وحين عاد ابن أبى ليلى إلى الكوفة، وتحدث إلى الناس عن شكواه لأبى حنيفة ، التى كلمها إلى المنصور ، قال أبو حنيفة : "إن ابن أبى ليلى ليستحل منى مالا يستحل من حيوان".  
ودعا المنصور أبا حنيفة ليقابله فى قصره ببغداد ، فأدرك أنها المحنة.

تروى كتب المناقب أن أبا حنيفة لما أخص إلى بغداد ، خرج ملتئم الوجه، وقال : "إن هذا دعائى للقضاء وقد أعلمته من قبل لأننى لا أصلح للقضاء . فلا يصلح للقضاء إلا رجل يكون له نفس ، يقدر بها أن يحكم على الخليفة ، وعلى ولده ، وعلى قواده ، وليست تلك النفس لى".  
وعن هذا القضاء ، تروى كتب المناقب : أن أبا حنيفة قال للمنصور :

-- إنك تدعونى إليك ، فما ترجع نفسى إلى حتى أفارقك.

فقال له المنصور :

-- فلم لا تقبل صلتى؟

فقال له أبو حنيفة :

-- ما وصلنى أمير المؤمنين بشيء من ماله فوددته . ولو وصلنى لقبائه. إنما وصلنى أمير المؤمنين ، من بيت مال المسلمين، ولا حق لى فى بيت مالهم . فإبى لست ممن يقتل من وراثهم ، فأخذ ما يأخذه المقاتل، ولست من ولدانهم فأخذ ما يأخذه للولدان ، ولست من فقراتهم فأخذ ما يأخذه الفقراء، من العطاء.

فقال له المنصور :

-- فأقم إذن معنا فى بغداد ، ويأتك القضاء ، فيما أعلمهم أن يحتاجوا إليك فيه.

وأبى أبو حنيفة ذلك الأمر ، مؤكدا أنه مجرد مفت بما يقبل منه، وما لا يقبل منه ، وقد يقول بالراى اليوم ، ويرى غيره غدا . وأقسم

المنصور على أبي حنيفة أن يقبل تولي القضاء ، ولعزم أبو حنيفة أنه  
أن يقبل.

حدث الصدام إذن والتحدى من الفقيه للخليفة، وعندئذ أمر  
المنصور بحبس أبي حنيفة ، وجلده كل يوم عشرة أمشاط ، إلى أن يقبل  
أن يكون القاضي الأول للخلافة.

\*

ويروي أن أبا حنيفة ، أخرج يوما من السجن ، وألزم باب  
الخلافة، وطلب منه أن يفتي فيما يرفع إليه من الأحكام ، أو يرسل إليه من  
المسائل. لكن أبا حنيفة أزم الصمت ، ولم يكن يفتي في هذا الأمر أو ذاك.  
وذهب إليه "الربيع بن يونس" الحاجب ، وقال له :

- ألا ترى أن أمير المؤمنين قد حلف. فأبر له قسمه ، فأبسه لا  
يستطيع أن يرجع عنه.

فقال له أبو حنيفة الفقيه المفتي:

- بل يستطيع . وهو على كفارة إيمانه أقدر مني.

وأعيد أبو حنيفة إلى سجنه ، وظل عليه في المعاملة ، وضيق  
عليه تضيقا شديدا، إلى أن أن لمحنة أبي حنيفة أن تقتضى بموته . فقد  
مات أبو حنيفة أثناء هذه المحنة أو إثرها، على اختلاف في الروايات ، بل  
على اختلاف في سبب موته : لكان من التعذيب وأثار التعذيب ، أم كان  
بسبب السم في سجنه أو في منزله ؟ ولقد كان الدعاء الذي يردد أبو حنيفة  
أبدا ، وهو في سجنه، كلما تتابع عليه الضرب بالسياط : "اللهم أبعد عني  
شرهم بقدرتك".

ولقد أبعد الله عنه شرهم بلختياره للقائه.

ولقد أوصى أبو حنيفة من كانوا يزورونه في سجنه ، أو في بيته  
بعد خروجه من سجنه ، بأن يدفن في جالب من مقبرة عينها ، لأنه لم يجر  
فيها غصب من الخليفة .

وتذكر الروايات أن المنصور قد صلى على قبر أبي حنيفة بعد  
موته، وذلك ما يؤكد أنه مات في بيته ، ولم يمض في محبسه ، سنة 150  
هجريه.

وحين علم المنصور بوصية أبي حنيفة، وشرطه في مقبرته، قال:

- من يعثرني من أبي حنيفة : حيا ، وميتا!!



ومع اضطرهاد للسلطة لأبى حنيفة الفقيه المفتى الإمام ، تعرض  
أبو حنيفة لإرهاب الخوارج ، كلما أتوا مقتحمين للكوفة ، على الناس ،  
وعلى ممثلى السلطة بالكوفة ، وهم مدججون بالسلاح.

حدث ، مرة ، على سبيل المثال ، أن الضحاك بن قيس ، وكان  
من زعماء الخوارج ، أنه دخل على أبى حنيفة ، وهو فى حلقته بمسجد  
الكوفة ، وكان مع الضحاك رجال من الخوارج مدججون بالسلاح ، وكان  
الخوارج يرون فيما يرون ، تكفير الإمام على بن أبى طالب ، لقبوله  
بالتحكيم فى موقعة صفين.

قال الضحاك لأبى حنيفة :

-تب.

-فقال له أبو حنيفة :

-م اقرب ؟

-فقال له الضحاك :

-من تجوزك الحكيم فى موقعة صفين بين على ومعاوية.

فقال أبو حنيفة للضحاك :

- تقتلنى أو تنظرنى .

فقال الضحاك :

-بل أناظرك.

فقال أبو حنيفة للضحاك :

-فإن اختلفنا فى شيء مما تناظرنا فيه ، فمن بينى وبينك.

فقال الضحاك :

-أجمل أنت من شئت .

فقال أبو حنيفة لرجل من أصحاب الضحاك مدجج بالسلاح :

- أقعد ، فأحكم بيننا فيما نختلف فيه ، إن اختلفنا.

ثم قال للضحك :  
- أترضى بهذا بينى وبينك ؟  
فقال الضحك :  
- نعم .

فقال أبو حنيفة لقوره:  
- هذا . أنت قد جوزت التحكيم .  
فبغت الضحك ، ولفظ جله مع أبي حنيفة ، ونهض منصرفا  
برجاله من مسجد الكوفة ، ومن الكوفة ، ولم يغير الخوارج موقفهم من  
تكفير الإمام علي ، لقوله بالتحكيم ، ولا ممن يجوزن هذا التحكيم من  
الفقهاء ، وعامة المسلمين .

# عمن الإمام مالك

في القرنين الهجريين الأول، والثاني عاش أيضا إمام النقل حديثا ومسنن الإمام مالكا ، وكان من أهل الجماعة . ولد بالمدينة، وعاش صوره كله بها يأبى أن يركب دابة ، يسير بها على تراب مشى عليه رسول الإسلام، ويفر بنفسه من الفتن والمحن، لكن الفتن والمحن لاحقته في عصر بني العباس.

-1-

مثما واجه الإمام أبو حنيفة لرهاب الخوارج ، ولرهاب السلطة ، واجه الإمام مالك بن أنس هذين الإرهابين ، وكان مالك يعيش بالمدينة في القرن الثاني الهجري، الثامن الميلادي ، ويفتي الناس والقضاة، في المسجد النبوي ، وفي الموضع الذي كان يجلس فيه الخليفة الراشد عمر بن الخطاب.

وكان الإمام مالك فقيرا ، لا تجارة له ولا حرفة. وكان يتلقى العون من صديقه الفقيه المصري "الليث بن سعد" كل عام، مائة بعير محملة لخيرات مصر، يأخذ منها حاجة عامة ، ويوزع سائرها على فقراء المدينة.

وكان مالك ، يقبل متحرجا، وعلى مضض هدايا الخلفاء ، ويتألم منها، فيعطىها لطلاب العلم الفقراء. وحين يسأله أحد عن حل أو حرمة هدايا الخلفاء ، كان مالك يقول له لفوره: "لا تلخذها" فيقول له سائله : "أنت تقبلها" فيقول له مالك: "أتريد أن تبوء بياض وإثمك؟".

وأحيانا يقول لسائله بمرارة ، حين يجبهه بقوله : فأننت تقبلها أحببت أن تيكنتي بذنوبي.

وكان مالك يعلم أن ولاءه للدولة يختبر بهذه الهدايا من الخلفاء ، ويجد العذر لنفسه لبعده عن عاصمة الخلافة ، في قبول هدايا الخلفاء.

وكان مالك يرى ، كمفت ، أنه لا جدوى من الخروج على الحكام وإن كانوا ظالمين ، فالخروج عليهم يؤدي إلى الفتن ، وبلادة الدماء ، فيكون القاعد خيرا من اللقائم ، ويكون اللقائم خيرا من السائر ، فلقد روينا لمالك في صباه أحداث استباحة المدينة حرم رسول الله ، وهناك حرمان المحارم وأمر الأنصار ، ورمى الكعبة بالمنجنيق ، على يد يزيد بن معاوية بن أبي سفيان .

وكان عمر مالك ثمانى وثلاثين سنة ، حين اقتحم أبو حمزة الخارجي مدينة الرسول سنة 130 هجرية ، وقتل هو ورجاله المدافعين عن المدينة . وكانت للمقتلة في قریش . وكثرت النائحات على رجالهن أباء ، وأبناء ، وإخوة ، وجاء جند مروان بن محمد (آخر خلفاء بني أمية) فأخرجوا الخوارج من المدينة ، والمدينة في هذا كله مكان لعبث الخوارج ، ثم لعبث الجند الأمويين .

ورأى مالك أن طموح الخوارج لإقامة العدل ، لا تبرر ذرائعهم ووسائلهم ، وأن إرهابهم للناس ، إثم ، ونتائجهم الواقعة لا خير فيها للأمة . ولم يكن مالك راضيا عن حكم الخلافة ، ولا راضيا عن الخوارج عليها ، ولا عن المتمردين من العلويين ، ولذلك لم يدع إلى طاعة السلطة ، ولم يؤيد ولاية السلطة ، ولم يرمع ذلك ، الخروج على طاعتهم لأن الخروج بلا ثمرة . ولذلك أجاب عندما سئل عن قتال الخارجيين على خليفة عباسي : أيجوز قتالهم . فقال له مالك : دعهم . ينتقم الله من ظالم بظالم ، ثم ينتقم من كليهما .

فى العصر العباسى . وفى عهد أبى جعفر المنصور ، نزلت بمالك محنة ، عام 146 هجرية ، ضرب فيها بالمسايط، ومدت يده حتى انخلعت كتفاه. ففى هذه السنة حدث خروج محمد بن عبد الله (النفس الزكية)، على الخلافة العباسية .

وتصادف أن مالكا كان يحدث الناس آنذاك بحديث : "ليس لمستكره طلاق".

ووجد الناس بالمدينة فى هذا الحديث، وكانوا انصارا للنفس الزكية ، ما يدل على أنه ، بالمثل ، ليس لمستكره بيعة ، ولذلك فلا بيعة للمنصور فى أصلهم .

ووجد الكائنون لمالك ، والخاصون له ، والغيارى منه، فرصة للكيد له عند والى المدينة من قبل المنصور: "جعفر بن سليمان"، قاتلين له: "إن مالكا لا يرى إيمان ببيعتكم هذه بشيء ، فهو يأخذ فى البيعة بحديث روى عن ثابت بن الأحنف، فى طلاق المكره ، أنه لا يجوز .

ولم يكن الحديث هو السبب فى محنة مالك، وإنما للتحديث به فى وقت الفتن ، واستفدلم الثائرين لذلك الحديث .

ولم يكف مالكا للدفاع عن نفسه أنه كان يلزم بيته فى وقت الفتنة، خاصة وأن مقتل النفس الزكية حدث عام 145 هجرية ، ومحنة مالك وقعت عام 146 هجرية.

وإثر المحنة التى نزلت بمالك ، مخط أهل المدينة على بنى العباس وولاتهم ، فمالك كان مظلوما ، ومالك لم يتجاوز حد الإفتاء، ففى موضوع طلاق المكره.

ولزم مالك بيته إلى أن شفى من جراحه، واستمر فى درسه لا يحرض على أحد، ولا يشكو لأحد ما نزل به ، فزاد موقفه من نقمة أهل المدينة على الحاكمين .

وأترك أبو جعفر من عيونه موقف الناس ، فانتهاز الفرصة حين خرج حاجا إلى مكة ، ونزل في بيت الإمارة بالمدينة ، وأرسل إلى مالك يدعو إليه ، ليعتذر له . ويروى مالك قصة هذا اللقاء ، يقول :  
 لما دخلت على أبي جعفر .. قال لي : والله الذي لا إله إلا هو ، ما أمرت بالذي كان ، ولا علمته . إنه لا يزال أهل الحرمين بخير ، ما كنت بين أظهرهم . وإني إياك أمانا لهم من عذاب . ولقد رفع الله بك عنهم سطوة عظيمة ، فإنيهم أسرع الناس إلى الفتن . وقد أمرت بعدو الله (والى المدينة) أن يؤتى به من المدينة إلى العراق على قتب (محمل صغير) فوق سنام البعير . وأمرت بضيق محبسه ، والاستبلاغ في امتثاله . ولا بد أن أنزل به من العقوبة لضعاف ما نالك منه . فقلت لأبي جعفر :  
 - عافى الله أمير المؤمنين ، وأكرم مثواه . قد عفوت عنه لقرابته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقرابته منك . فقال لي أبو جعفر : فعفا الله عنك ووصلك . ثم قال أبو جعفر لي : إن ربك ربيب من عامل المدينة ، أو عامل مكة ، أو أحد من عمال الحجاز ، في ذاتك ، أو ذات غيرك ، أو سوء أو شر بالرعية ، فاكذب إلى بذلك ، أنزل بهم ما يستحقون .

# محن الإمام الشافعي

في العصر العباسي ، ولد الإمام الشافعي وعاش ، وكان قرشي النسب . وجمع في فقهه بين النقل والعقل ، فقد تتلمذ على مالك ، وعلى تلميذ أبي حنيفة . ونجح بهذا الجمع في وضع أصول الفقه لأول مرة في كتابه "الأم" . ولقد دفعه الفقر إلى العمل لدى والي اليمن ، ثم إلى صحبه والي مصر ، فكفله ، ورعاه .

-1-

كان العباسيون في بغداد ، يخشون خصومهم العلويين الأتقياء ، وكانوا إذا رأوا دعوة علوية ، قضاها عليها في مهدها ، وقتلوا العلويين ، والمتهمين بالعلوية بالشيعة ، وباليقين ، فقتل بريء أولى عندهم من ترك متهم يفسد الأمن عليهم .

واستغل والي اليمن هذا الضعف في نفوس العباسيين ، فأرسل إلى الخليفة هارون الرشيد يقول :

"أن تسعة من العلويين تحركوا .. وإنني أخاف أن يخرجوا (بالثورة) .. وإن هاهنا رجلا من أولاد شافع المطلبى ، لا أمر لي معه ولا نهى . يعمل بلسانه ما لا يقدر عليه المقاتل بسيفه" .

وأرسل الرشيد إلى والي اليمن يأمره بإرسال هؤلاء العلويين التسعة إليه ، ومعهم ذلك الشافعي المطلبى ، وكان حشرهم .

وقتل الرشيد التسعة ، وكاد أن يقتل الشافعي ، لولا حجة الشافعي بين يديه ، ولولا شهادة محمد بن الحسن الشيباني "تلميذ أبي حنيفة له .

قال الشافعي للرشيد :

- يا أمير المؤمنين . ما تقول في رجلين : أحدهما يراعى أخاه ، والآخر يراعى عبده . أيهما أحب إلي ؟

- فقال الرشيد :

- الذي يراك أخاه .

فقال الشافعى:

- فذاك (الأخ هو) أنت يا أمير المؤمنين . إنكم ولد العباس ،  
وهم ولد على ، ونحن بنو المطلب ، فأنتم ولد العباس تروننا أخوتكم ، وهم  
يروننا عبيدهم.

ولأن العلم رحم بين أهله ، فقد شهد محمد بن الحسن الشيبانى  
للشافعى ، بأن له حظا من العلم والفقه يعرفه . قال:

- وله من العلم يا أمير المؤمنين حظ كبير . وليس الذى رفع  
عليه (من وإلى اليمن) من شأنه.  
فقال له الرشيد:

- فخذة إليك ، حتى أنظر فى أمره.

وبهذا نجا الشافعى من القتل ظلما ، ومرت المحنة الأولى على  
الشافعى ، وهو فى الرابعة والثلاثين من عمره ، سنة 184 هجرية .  
وأدرك الشافعى من هذه المحنة أن عليه أن يتجه إلى العلم ، لا إلى  
الولاية، وخدمة شئون السلطان ، وصار ضيفا مقيما ، على الفقيه محمد  
بن الحصن ، حامل فقه المرافقين ونشره ، إلى أن رحل إلى مصر.



في مصر ، راح الشافعي يلقى بأرائه هو الفقهية ، لا يتعرض فيها بنقد أو تزييف لأراء شيخه مالك ، وافقه أو خالفه ، ولذلك كان الشافعي يعد من أصحاب مالك بين فقهاء مصر ، مع أن في آرائه ما يخالف آراء مالك ، مثلما خالف مالكا ، من قبل ، بعض أصحاب مالك ، ومثلما خالف أبا حنيفة ، من قبل ، بعض أصحاب أبي حنيفة .

ثم حدث ما اضطر الشافعي إلى أن ينقد آراء مالك ، وكشف ما فيها من خطأ .

فقد بلغه أن الإمام مالك قد تمسك لأثره ، وثبانه ، في بعض البلاد الإسلامية ، وأن مسلمين من المسلمين يعارضون أحاديث للرسول ، بأقوال مالك .

وأدرك الشافعي أن الناس مقدمون على أمر خطير ، تصبح به أقول مالك ديناً داخل الدين . فمالك يصيب ويخطئ ، وليس لرأي مالك ولا لرأي سواه مع الحديث رأي ، وهو (الشافعي) معروف بين الناس بأنه ناصر الحديث ، وعليه أن ينقد آراء مالك ، ويعلن عن الخطأ فيها للناس ، ليعلم الناس أنه لا رأي لمالك مع الحديث للصحيح ، الذي لم يبلغ مالكا . وعكف الشافعي وألف كتاباً بعنوان "خلاف مالك" . وتردد فترة في إعلانه ، فهو عنده "الأمثلة" ثم استخار الله وأذاعه للناس .

يروى "الفخر الرازي" في كتابه عن مناقب الشافعي . يقول :  
"إن الشافعي إنما وضع للكتاب على مالك ، لأنه بلغه أن بالأندلس قلنسوة (خطاء رأس) يستقى بها (الناس) . وكان يقال لهم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقولون قال مالك . فقال الشافعي : إن مالكا أسمى قد يخطئ ويغلط . فكان ذلك داعياً للشافعي إلى وضع الكتاب على مسالكه وكان يقول : كرهت أن أفعل ذلك . ولكنني استخرت الله فيه منه" .

ويروى للربيع تلميذ الشافعي ، يقول :

تسمعت الشافعي رضي الله عنه يقول : قننت مصر ، ولا أعرف  
أن مالكا يخالف من أحاديثه إلا ستة عشر حديثا . فتظرت فلذا هو (مالك)  
يقول بالفرع ، ويدع الأصل ، ويقول بالأصل ، ويدع الفرع .  
وكان لمالك بمصر المكان الأول بين المجتهدين .

ولذلك ثار المالكيون على الشافعي ، وراحوا ينقدونه ويجرحونه ،  
ويعلمون عليه ، بل ذهب جماعة منهم إلى الوالي طلائين بإخراج الشافعي  
من مصر ، فدفع عنه الوالي بأنه لم ينقد مالكا قط ، وإنما نقد من قبله آراء  
الأوزاعي فقيه الشام . وذكرهم بقول أحمد بن حنبل فيه : "الشافعي فيلسوف  
في أربعة أشياء في: اختلاف الناس، والمعاني، والفقه، واللغة، وذكرهم  
الوالي بأن الناس كانوا قبل الشافعي فريقين : أصحاب الحديث ،  
وأصحاب الرأي ، وإن الشافعي جمع بأصوله بينهما ، فانقطع بسببه  
استيلاء أهل الرأي على أهل الحديث ، ومالك كان غالبا من أهل الحديث .  
ولقد الوالي مع الشافعي ، تاركا لياه لجداله مع العلماء ، لا  
يخرجه من مصر ، إلى أن اندفع شاب ، واعتدى عليه . ويروى بإقوت  
في معجمه قصة هذا الاعتداء ، يقول :

"كان بمصر رجل من أصحاب مالك بن أنس ، يقال له "فتيان"  
فيه حدة وطيش ، وكان ينظر الشافعي كثيرا ، ويجتمع الناس عليهما ،  
فتناظرا يوما في مسألة بيع الحر ، وهو القمد المرهون ، إذا اعتقه الراهن ،  
فاجاب الشافعي بجواز بيعه ، ومنع فتيان بيعه .

وظهر للشافعي على فتيان في الحجاج (الجدال) ، فضاق فتيان  
لذلك ذرعا ، فشتم الشافعي شتما قبيحا ، فلم يرد الشافعي عليه حرفا ،  
ومضى في كلامه في المسألة .

ورفع (ما حدث) إلى الوالي ، فدعا الوالي الشافعي ، وماله عن  
ذلك ، وعزم عليه (لح عليه) فلخبره (الشافعي) بما جرى ، وشهد اليهود  
على فتيان بذلك .

وأمر (الوالي) بفتيان فضرب بالمسياط ، وطيف به على جبل ،  
وبين يديه من ينادي : هذا جزاء من سب آل رسول الله صلى الله  
عليه وسلم .

ثم إن قوما تعصبوا لفتيان من سفهاء النسل ، وقصدوا حاقلة الشافعى ، (وانتظروا) حتى خلت من أصحابه ، وبقي وحده ، فهجموا عليه وضربوه ، فحمل الشافعى إلى منزله ، فلم يزل فيه طويلا حتى مات .  
وقد لا يكون الضرب هو سبب الموت ، فالعلة التى مات بسببها الشافعى هى مرضه بالبواسير ، وقد أصابه بسبب البواسير نزف شديد ، فلقى وجه ربه راضيا مرضيا .

• • •

# محن الإمام أحمد ابن حنبل

فى العصر العباسى. فى القرن الثانى الهجرى عاش إمام الأئمة للرسول أكرالا وأفعالا : أحمد بن حنبل الشيبانى. ومثل الشافعى نشا أحمد يتيم الأب فى بغداد ، يستغنى مع أمه بعائد يمسير من منزل ورثه به حوائيت. ونفعه الورع والقناعة إلى طلب علم الحديث وسنة الرسول صره كله، وكان يرفض أن تكون عنه أرلوه فى الفقه ، فهو محدث ومتبع. وأشهرته بين الناس ، تعرض لمحنة طويلة الأمد، فى عهود خلفاء معتزليين لبني العباس اعتقدوا فى أن القرآن مخلوق.

-1-

كان الخليفة المأمون ، صاحباً للمعتزلة ، ومن بينهم اختار وزراءه ، وأصحابه ، وكان يقول مثلاً يقولون ، ومن بين ما يقولونه فى مسائل العقائد، فى علم الكلام ، أن القرآن الكريم مخلوق ومحدث ، وكتبوا يقولون بذلك منذ عهد الدولة الأموية. لكن الخليفة المأمون حين قال بمثل ما قالوا به، وهو الخليفة الإمام ، أراد من الفقهاء والمحدثين ، الذين يكرهون علماء الكلام ، ويكرهون طرائقهم الفلسفية فى عقائد الإسلام ، أن يقولوا مقالته فى خلق القرآن ، أن القرآن مخلوق ومحدث. ولقد أوصى المأمون من بعده من الخلفاء أن يقولوا بمثل ما يقول ، وأن يحملوا الفقهاء والمحدثين على مثل ما يحملهم عليه ، فاتبع وصيته خليفان من بعده ، هما: المعتصم ، والواثق، وسلكا مسلكه .

ولقد أراد المأمون أن يحمل أحمد بن حنبل ، محدث عصره الفقيه، على القول بخلق القرآن ، وبلغه محدث . فابى أحمد ذلك القول ، وأصر على قوله بأن القرآن كلام الله . فكانت محنته مدوية استمرت فى عهد المأمون، وفى عهدي المعتصم والواثق من بعده، ومحنة لقي فيها العذاب .

وأول من دعا إلى أن القرآن مخلوق ومحدث ، هو "الجعد بن درهم" ، في العصر الأموي ، فأتى به الولي خالد بن عبد الله القسري ، إلى مسجد الكوفة ، مقيدا بالأغلال في يوم عيد الأضحى . وصلى خالد بالناس صلاة العيد ، وخطب في الناس خطبة العيد ، ثم قال لهم في آخر خطبته :  
 - اذهبوا (عائدين إلى بيوتكم) ، وضجوا بضحاياكم ، تقبل الله (منكم) ، (أما أنا) فأتى أن أضحي بالجعد بن درهم ، فإنه يقول : إن القرآن مخلوق ، وإن الله ما كلم موسى تكليما ، ولا اتخذ إبراهيم خليلا ، تعالى الله عما يقول علوا كبيرا

ونزل الولي خالد عن المنبر ، وقتل للجعد بن درهم ، مطيحا برأسه في حنف ، بعد سيفه .

وبمثل قول الجعد ، قال "الجهنم بن صفوان" ناهيا بقوله صفة الكلام عن الله سبحانه ، تنزيها لله عن الحوادث وصفاتها ، فالقرآن عنده مخلوق ، وليس بقديم .

وعندما ظهر المعتزلة ، نفوا صفات المعاني عن الله سبحانه ، وأنكروا معها صفة الكلام ، وأولوا كلام الله لموسى ، بأنه سبحانه خلق الكلام في الشجرة ، مثلما يخلق كل شيء . فالقرآن مثل كل شيء مخلوق محدث . وزاد خووض المعتزلة في هذه المسألة في عهد الرشيد ، ولم يكن الرشيد يشجع أحدا من رعيته على الخوض في العقائد ، بل إنه حبس جماعة من المجادلين في الكلام ، من المعتزلة ، وقال عن المعتزلي المتكلم العالي الصوت "بشر بن خيثم" :  
 - إن أظفرني الله بدين خيثم أقتله .

أفضل بشر مستخفيا طوال خلافة الرشيد ، ثم عاد إلى الظهور أمنا ، وعالي للصوت ، في عهد ابنه المأمون وكان بشرا تلميذ في الأديان والمقالات في الأديان ، لأبى الهذيل العلاف ، أحد رعوس علماء الاعتزال الكبار .

وحين صار المأمون خليفة ، واستقر له أمر الخلافة في بغداد ، صار يعقد المجالس للمناظرات والمناقشات ، في المقالات والنحل والملل . وكان فرسان هذه المناظرات ، هم علماء المعتزلة . ولذلك خص المأمون هؤلاء العلماء ، بأن يكون من بينهم وزراءه ، وأصحابه ، وفي مقدمتهم :

أحمد بن أبي دؤاد: "ووصل المأمون من اصطفاة له ، أنه أوصى أخاه المعتصم بأن يجعله مستشاره ، في كل أموره ، قتلا له :  
.. وأبو عبد الله بن أبي دؤاد ، فلا يفارقه وأشركه في المشورة في كل أمره ، فبته موضع لذلك منك".

وقد بدأ المأمون في تأييد الاعتزال سنة 212 هجرية ، وأظهر هذا التأييد بإبداء رأيه في المناظرات التي كان يعقدها لأهل الفرق الإسلامية ، معتزلة كانوا ، أو غير معتزلة ، تاركاً الحرية للعلماء ، وللناس ، في القول بالاعتزال ، وغير الاعتزال ، طوال ست سنوات. ثم بدا له في سنة 218 هجرية ، أن يصل الناس ، علماء وغير علماء ، وبقوة الإمامة ، على القول قهراً ، بفكرة خلق القرآن .

بدأ ذلك المأمون وهو بمدينة الرقة ، حين أرسل رسالة إلى "إسحق ابن إبراهيم" ، نائبه على بغداد ، ليحمل الفقهاء والمحدثين ، على القول بخلق القرآن ، معهم من يكون مناصب في الدولة ، ومن يكون القضاء ، ومن يتقدمون للشهادة أمام القضاة ، وليعزل كل من لا يقول بخلق القرآن من منصبه ، أو من الإدلاء بشهادته ، أو من صله ككاف ، ولينزع من الفتوى كفتيه ، أو من التحديث كحدث كل من لا يقول بخلق القرآن .

وطالب المأمون من إسحق أن يرسل إليه في الرقة ، باستجابات المستجيبين ، ورفض الرافضين ، وأرسل إليه إسحق بمواقف الرافضين ، وببطلان قضائهم ، وفقهاء ومحدثون ، أبوا أن يقولوا بخلق القرآن .  
وكتب المأمون ثانية إلى إسحق ، يأمره بأن يرسل بسهولة الرافضين إليه في معسكره بالرقة ، تحت حراسة مشددة ، مقيدون بالأغلال ، ليستتيبهم المأمون عن الشرك ، وينذرهم بعقوبة الإعدام .



وسبق المحدثون والفقهاء المفتون ، وبينهم كان أحمد بن حنبل ، إلى أمير المؤمنين للمأمون .

وبين يدي المأمون ، وأمام التهديد والوعيد ، اعتنق الرافضون جميعاً مذهب الاعتزال ، والقول بخلق القرآن ، إلا أربعة ، أصروا على

موقفهم، هم : أحمد بن حنبل ، ومحمد بن نوح ، والقواريري ، ومجادة ، فباتوا ليأتهم مصنفين في الأغلال.

وفي الصباح تراجع "سجادة" أمام المأمون ، وقال بخلق القرآن ، ففكت قيوده ، وأطلق سراحه ، وأعيد الثلاثة الآخرون إلى سجنهم بالمعسكر مقيدون بالأغلال .

وفي الصباح التالي ، خار "القواريري" وسلم بالقول بخلق القرآن فاطلق سراحه.

وبقى في القيود : أحمد بن حنبل ، ومحمد بن نوح ، وحمل الاثنان إلى طرسوس ، مع المأمون .

وفي الطريق ، استشهد محمد بن نوح.



ثم نعي الناعي بغتة وفاة المأمون ، وكان على الخليفة المعتصم ، من بعده ، أن ينصر دعوة الاعتزال ، وأن يقرر مصير أحمد بن حنبل ، الذي رفض الخوض بأي قول في هذه القضية ، فقد رفض أن يقول بأن القرآن مخلوق ، ورفض أن يقول بأن القرآن غير مخلوق ، مؤكداً أمراً واحداً هو أن القرآن كلام الله ، ولا دخل له بكونه مخلوقاً أو غير مخلوق. وهكذا توقف أحمد ، لأنه لم يؤثر عن السلف كلام في هذه المسألة ، وعلمها عند الله وحده.

وراح المعتصم ينزل الأذى بمخالفيه ، ومخالفه مستشاره أحمد بن أبي دؤاد ، في القول بخلق القرآن ، ممتحناً الضمائر ، كاشفاً للسرائر. ولذلك انتقد كثيرون ممن يقولون بخلق القرآن ، المعتصم ومستشاره ، وعلى رأس هؤلاء المنتقدين كان الجاحظ المعتزلي ، لأنهما يدعوان إلى حرية الفكر ، وفي الوقت نفسه يعذبان من يمارس هذه الحرية !!

وتقع مسئولية الاضطهاد ، بالأكثر ، على ابن أبي دؤاد ، فهو عالم ، والمعتصم رجل سيف . وقد ترك له المعتصم حرية التصرف ، مع أحمد بن حنبل .

أمر ابن أبي دؤاد بأحمد بن حنبل ، ضيق مقيداً إلى السجن ببغداد ، واتخذت بالسجن مع ابن حنبل وسائل الإغراء والإرهاب ، لكنه صمد عند ترقفه في أمر خلق القرآن .

وفى كل يوم ، طوال ثمانى وعشرين شهرا ، كان أحمد يضرب بالسياط إلى أن يغمى عليه ، وينخس بالسيف فلا يحس ، وعندئذ فقط يترك إلى اليوم التالى .

وحين ينس معذبو أحمد منه ، رجموه ، وأطلقوا سراحه ، وأعادوه إلى بيته مثخنا بالجراح ، لا يقوى على السير ، وقد انتصر بقاءه ، وهزم أصحاب السياط .

وانقطع أحمد عن الدرس والتحديث ، إلى أن شفيت جراحه ، فعاد إلى المعبد معافى ، إلا من آثار التعذيب ، وندوب السياط ، وأوجاع الأعضاء ، وراح يدرس فى المسجد ، ويحدث الناس فى المعبد ، إلى أن مات الخليفة المعتصم ، وتولى الخليفة الواثق ، وعندئذ أعاد الواثق بمشورة ابن أبى دؤاد المحنة إلى حياة أحمد بن حنبل .

لكن هذه المحنة لم تكن فى هذه المرة مجنا ، ولا ضربا بسوط . كانت فقط منما لأحمد ، من الدرس ، والتحديث ، فى المسجد ، أو فى غير المسجد ، ومنما لأحمد من أى اجتماع بالناس ، أو السكنى ببلد يقيم فيه الخليفة الواثق ، فلقد زادت منزلة ابن حنبل عند الناس ، وزاد سخط العامة على الخلافة ، وعلى أحمد بن أبى دؤاد ، وشاعت بين الناس فكرة التوقف عن القول بخلق القرآن . أو عدم القول به ، فهو فقط كلام الله ، كما قال القرآن ، ودون تأويل لظاهر القرآن ، كما قال أحمد .

قال الواثق لأحمد بن حنبل :

- لا تجمعن إليك أحدا ، ولا تسكن فى بلد أنا فيه .

وامتنع أحمد بن حنبل للأمر فى هذه المرة ، فأنشأ مخفيا ، لا يراه أحد ، ولا يخرج من بيت يختفى فيه إلى صلاة ، أو إلى غير صلاة ، طوال خمس سنوات ، من سنة 228 هجرية ، إلى سنة 232 ، إلى أن ملت الخليفة الواثق .

وجاء المتوكل بعد الواثق ، فأوقف الاضطهاد ، وحارب الاحتزال ، وعندئذ عاد أحمد ، عزيزا مكرما ، إلى التدريس ، والتحديث ، فى المسجد ، وفى غير المسجد .

ولقد تركت محنة القول بخلق القرآن وراءها شهادا من شهادا خلافت القهر ، بينهم كان : يوسف بن يحيى البهيوطى الفقيه المصرى ، ونعيم بن حماد .



ملحق

رسالة الصحابة لابن المقفع



## شاهد عصر وثيقتة على عصره

فى القرن الثانى الهجرى ، الثامن الميلادى ، عاش كاتب مفكر مستعرب هو عبد الله بن المقفع ، وصار هذا الاسم اسما له ، بعد أن تعرب ، وأسلم ، وكان من قبل فارسى الأصل ، واسمه : روزبه بن داذويه . وكان أبوه من جبة الخراج لبني العباس .

تعرب ابن المقفع ، وهو بالبصرة ، على يد أسرة عربية ، هى أسرة بنى الهيثم ، وتعلم منها العربية ، مفرداتها ، وتراكيبها ، وبلاغتها ، وفصاحتها ، وأسرارها ، وتتلذذ ، وقد هوى الكتابة على يد أول كاتب عربى أديب معروف ، صار أبا للكاتب العرب ، وللكتابة العربية ، وهو : عبد الحميد الكاتب . وعاصر ابن المقفع أبا عثمان الجاحظ الكاتب الثانى الذى كان يعيش أيضا بالبصرة ، كما عاصر العلماء المسجدين بمسجد البصرة ، وبينهم علماء اللغة والدين ، وفى طليعتهم الخليل بن أحمد .

وحاول ابن المقفع أن يحى صديقه وأستاذه عبد الحميد الكاتب ، يوم أن جاء الطلاب من العباسيين لرأس عبد الحميد ، فزعم أنه هو عبد الحميد ، مثلما زعم عبد الحميد أنه هو عبد الحميد ، ولم يفرق بينهما إلا بأثر شح كان فى رأس عبد الحميد . وكان عبد الحميد كاتباً لسروان بن محمد آخر خلفاء القهر الأمويين ، فأخذ الطالبون عبد الحميد ، وتركوا ابن المقفع ، وقتل عبد الحميد بوضع طست محمى على رأسه ، راح يصعقه على مهل .

وصار ابن المقفع . بعد أن استقر الأمر لبني العباس ، خلال سنوات معدودة ، كاتباً لأعمام الخليفة أبى جعفر المنصور . وكانوا يحملون فى أنفسهم لابن أخيهام المنصور حقدا وعداء نفين . وورطه الأعمام فى كتابة عهد أسهم فيه المنصور بالطلاق لثمانه ، والمتلق لجواريه ، على الأمان لأعمامه ، والوفاء بعهد أخيه الراحل أبى العباس السفاح ، بأن يكون

أحد هؤلاء الأصنام وليا لعهد، وخليفة من بعده . ولاشك أن المنصور قد أسرها في نفسه لهذا الكاتب المستعرب ، الصواغ الماهر للأفكار والكلمات، وصار أمره مع المنصور مبالغة وقت ، ولتتظار لوقوع الفريسة في الشراك.

وراح ابن المقفع وهو بالبصرة يواصل مشروعه الفكريّة الخاصة في أوقات فراغه، ترجمة عن الفارسية ، وتاليفا بالعربية ، وفي مقدمة ترجماته كانت قصص كليلّة وممنّة، ومع أنها على النمّة الحيوانات، وبين الحيوانات، وفي عالم الحيوانات ، فرموزها ومعانيها ومراميتها وغاياتها وأهدافها السياسية لا تخفى على أحد في زمانه ولا بعد زمانه ، في قضية الحكم، وقضية الحاكم ، وقضية المحكومين ، فعالم الحيوانات عالم غلبة ، وعالم الخلافة في زمانه كان عالم غلبة أيضا.

ووقعت الطامة الكبرى على رأس ابن المقفع ، وتحقق المجد . الأعظم لابن المقفع ، حين سمّاه أحوال عصره ، خلافة ومستخفا عليهم ، وقادة وجندا، وقضاة، وجباة جزية ، وعمال خراج ، فخط بلسان عربي مبين، وريشة من البوص علمه عبد الحميد من قبل كيف يبريها، ويسويها، ويقطعها قطعا مثلا، ويشق منها شقا لا يكاد يرى. خط رسالة الصحابة، وأصطافها للوراقين، وبعث بها للخليفة أبي جعفر المنصور ، كرسالة من "ناصر أمين" لا يريد سوى الإصلاح ما استطاع، ناصح لا يقول بمثل نصحه أحد من صحابة الحاكم الحكام ، وأمين لم يستأنفه أحد على مصلحة أحد.

والصحابة الذين عناهم ابن المقفع هم حاشية للخليفة الحاكم وأعواله ورجاله، من قضاة ، وقادة، وجندا، وعمال خراج، ولقد تستر ابن المقفع وتخفى وراء هذا العنوان "رسالة الصحابة" (والصحابة قرينة الأمانة أو الخلافة دلما) ولم يضع لوريقته عنوان : "رسالة الخلافة"، أو "رسالة الإمامة" فكيف يضع مثل هذا العنوان ويوجهه لعامة يخضعون لبني العباس ، وخاصة هم أحوال لبني العباس ، والخليفة يعتبر نفسه "ظل الله الممدود في أرضه إن شاء بسطه قاصطي، وإن شاء قبض فأمنك".

وجاءت الرسالة جريئة وشجاعة ، تلف وتدور نعم، ولكنها نصيب بنقدها في مقتل ، وتشيع هذا النقد بين الكفة والخاصة ، ربما قبل

أن تصل إلى يد أبي جعفر . وفي هذه الرسالة ، كان مصرعه بتقطيع وإلى البصرة لأوصال جسده ، وهو حي ينظر ، وإلقائها أمام عينيه في أتون (فرن كبير) موقد بدار الولاية بالبصرة . وكان معه خادمه وحامل أوراقه وريشته ومحبرته ، ينتظر عودته من لقاء وإلى البصرة ، وحين لم يعد ، وقد مرت ساعة بعد ساعة ، بعد ساعات . انطلق يصرخ ويولول في شوارع البصرة : قتل ابن المقفع . قتل ابن المقفع . وبادر المنصور ، وهو الذي كان قد أوعز لوزيريه بهذا القتل ، فأوعز به بدوره لوالى البصرة ، بادر بالقبض على وإلى البصرة ، مقيدا بالأغلال ، على ظهر جمل بلا سرج . وعقد مجلس طالب فيه أعيان الخليفة بدم ابن المقفع . ولكن أين جثة ابن المقفع حتى يمكن توجيه اتهام لأحد ، فلا وجود لهذه الجثة ، ولعل ابن المقفع خاف بعد رسالته ، وذهب أبقا وماربا في بلاد فارس ، أو في سواها من البلاد ، ولم ينكشف السر ، إلا بعد أن اعترف به من قام بقتله . ولكن بعد أن كان الخليفة ، والوزير ، والوالى ، والأعيان ، قد فارقوا الدنيا .

لم يهرب ابن المقفع في بلاد فارس ، ولا في سواها من البلاد ، لكن ما هرب ونجح في الهرب كانت رسالة الصحابة لابن المقفع ، هربت ونجحت في الهرب من بطش بني العباس ، ومن طغاة الترك ، والبويهيين ، والسلجوقيين والفاطميين وطفاة سواهم بلا حصر ولا عد . وهربت من حرائق المغول لكنت بغداد . ونجحت في الهرب . لتصبح أوراقها من أندر صفحات التراث ، وأوائها في الفكر العباسي ، وثيقة على عصر خلافي ، من صوّر خلافت القهر الإسلامية ، وشهادة لمفكر شهيد : عبد الله بن المقفع ، أو روزه بن دنويه .

ورسالة الصحابة لابن المقفع تصدت لعدد من القضايا الاجتماعية التي كانت سائدة في زمانه ، خاصة في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور ، الشهير بأبي الدوانيق لبخله الشديد .

في هذه الرسالة شخص ابن المقفع ، ككاتب ، ومفكر سياسي . مشكلات عصره ، في ضوء ثقافته الفارسية السياسية والاقتصادية والاجتماعية أولا ، وفي ضوء معاشته لمشكلات الواقع الاجتماعي في عصره ، بعد أن تنقف بالثقافة العربية ، ودرب على الكتابة بالعربية ، على

يد أستاذة عبد الحميد الكاتب ، في الفترة التي قضاها من عمره كواحد من الرعايا الفرس بالدولة الأموية ، وحاول بهذا التشخيص ، أن يضع أفكارا أساسية للإصلاح الاجتماعي ، في مجتمع معلم ، يضم عريبا وفرسا ، وتحكمه الخلافة القرشية الهاشمية العباسية ، وحاول في هذه الأفكار أن يلانم بين العقل الفارسي والعقل الإسلامي ، لتكون بنت الحضارة الجديدة في العصر العباسي .

ونجح ابن المقفع في أن يضع يده على أمراض المجتمع العباسي الرئيسية ، وأولها مرض السلطة الذي أصاب الخلفاء ، ومرض الفساد الذي أصاب رجال البلاط ، والجنود ، والولاة ، ومرض اضطراب أحكام القضاة لاختلاف معتقداتهم ومذاهبهم الدينية ، وعدم وجود قوانين حاكمة فيما استجد من أمور على المجتمع الإسلامي .

وقد رأى ابن المقفع أن الخلفاء يميلون إلى الغدر ، لوقوعهم في سوء الظن ، بسبب سعيات خبيثة ، والغدر لوم ، واللوم من طباع ضعاف النفوس ، في حين أن الخليفة الحاكم ، يجب أن يكون قويا ، والقوى يشق الأمانة . ورأى أن الخلفاء يميلون إلى البخل ، والبخل نقص في الطبع البشري ، وعلى الخليفة أن يكون سخيا ، كي يسدل الستار على ما قد يقع فيه من سيئات ، وما قد يقع فيه رجاله من مظالم . ورأى أن الخلفاء لا يحسنون اختيار الرجال لما يصلحون له من الأعمال . لأنهم يختارون بعواطفهم ، فيوقعهم هذا الاختيار في إبعاد الأكفاء عن السلطة ، وربما تحقق هذا الإبعاد منهم بالانتقام والجور ، وقد لجأ ابن المقفع في مواجهته لهذا المرض الخلافي إلى الإثارة والتلميح ، تجنباً لغضب الخليفة وبطانته ، وإلى الإبانة والتصريح حين لا يكون له مفر منهما .

وفي رسالة الصحابة أصبح ابن المقفع أكثر حرية في مواجهته لأمراض بطانة الخليفة ، وتصويره لأراء الناس فيهم ، فهي عندهم بطانة سوء ، فلا حسب لديهم ولا مروءة ، ولا نجدة عندهم ولا شرف . ورجال البطانة هم صحابة الخليفة ، وبهم تصلح للرحمة ، وبهم تقصد . ولذلك يجب أن يحسن الخليفة اختيار رجال بطانته من أهل الخبرة ، من ذوي الاختصاص ، وأصطب العقل ، فالمعرفة وحدها تهدي إلى سبل الرشاد ، والرخاء والأمن .

وأصبح ابن المقفع أكثر حرية في رسائله في مواجهة أمراض القضاء. وبدون نصيحهم وحيلهم لا يمكن أن يبقى الملك أساس متين . فأحكام القضاء في زمانه كانت فوضى، وأرلوهم في القضية الواحدة كانت متناقضة تناقضا قبيحا، فالقضية الواحدة كان يحكم فيها بأحكام متناقضة ، فئمة قاض يحكم على ضوء السنة ، وقاض يحكم على ضوء القياس، وقاض يحتج بالسنة ولو كانت منقولة عن أى كان بلا تمحيص ولا فهم لجوهر السنة ، وقاض يعمل رأيه في المسألة التي تعرض برأيه وحده، دون نظر في كتاب الله ، ولا إتياع لسنة ، فيقع في أخطاء كثيرة سببها المغفلة الذهنية أو السهو ، أو ملائسات أخرى تحصل من جراء الاستبداد بالرأى.

ويقترح ابن المقفع توحيد القوانين بجمع الخليفة للفقهاء ، والاستعانة بدراساتهم وأبحاثهم ، وفهمهم للمسائل والقضايا والمشكلات في عصره ، وسعيه معهم لمن قانون عام متفق عليه ، يجب أن يسير عليه كل القضاة .

وقد دعا ابن رشد إلى هذه الفكرة نفسها في الأندلس بعد عدة قرون ، وكان قاضيا للقضاة في الأندلس والمغرب توحيدا لأسس العدل في الأمة، وحتى لا يحكم في البلد الواحد، بأحكام متناقضة في المسألة الواحدة. وكلتا الدعوتين لم ينفذهما الخليفان: الخليفة في بغداد ، والخليفة المرابطي فالموحدي في قرطبة .

والدعوة نفسها نجح نابليون بونابرت في تنفيذها في فرنسا سنة 1804 حين شكل لجنة من كبار رجال القانون والتشريع، ووجد بهم القانون الفرنسي، فيما عرف بالقانون المدني، أو قانون نابليون . وحل بونابرت بهذا التوحيد. تلك المناطق الفرنسية .

ولو فعل الخلفاء ذلك في أزمنتهم لقضوا على اختلاف العدل . وثغرات الظلم ، وتناقضات الفقهاء ، وصراعات الحركات السياسية والدينية والشعوبية في العالم الإسلامي في زمانهم .

وأصبح ابن المقفع في رسائله أكثر حرية في مواجهته لأمراض الجند وهم سياج الأمة . فغيرة القواد من بعضهم البعض ، وحسدهم لبعضهم البعض ، تحتل جولاب من قلوبهم ، والتترف والزهو يفتكان بحياة القادة ، ومن وراءهم من الجند، وبذلك يحل الضعف فيهم ، ويشيع التلصص

بينهم ، وهم مبياح الأمة ، وحين يتداعى تلك السياج تظهر عوارث الأمة لأعدائها ، فيطمعون فيها ويستولون عليها ، قد تمكنت أمراض النفس الأربعة بروح الجندية ، ويقترح ابن المقفع أن يسعى الخليفة لاستئلال الحسد والغيرة من قلوب القادة ، والطمع فى القترف ، وروح الزهو ، من نفوس الجند. ولا سبيل له إلى ذلك إلا بإبعاد الجند ولقادة عن أين العيش ، ووضع الكل فى المركز الذى يطوقه ، ويصلح له ، والأمين فى الوظيفة التى تجدر به وأساس إصلاحهم أن يعيدوا عن ولاية الخراج ، والأمصار ، لأن ولايتهما مفسدة للمقاتلة ، وأن يعطوا رواتبهم ومكافأتهم فى حين معلوم ، حتى لا يضعفوا بالفقر والجوع ، ويقعوا فى شرك الخيانة ، والتطلع إلى الحصول على المال ، من أى طريق ، ولو كان حراما.

وغاب عن بال ابن المقفع ، كمفكر سياسى واجتماعى (وهو أول مفكر سياسى واجتماعى فى تاريخ الإسلام بهذه الرسالة وحدها) أن يخلق أبواب أنصبة الغنائم والى عن الجنود والقادة ، فأحيانا يلجون إلى شن حروب لا مبرر لها ولا صالح للأمة ولا للحكم فيها ، لمجرد كسب الغنائم ، والحصول على نصيب من الفىء ، ويفتعلون وصولا إلى هذه الغاية ، ألوانا من الدعاوى والمبررات ، يقدمونها معاذير ومحاذير للحكام وللشعوب.

وأصبح ابن المقفع أكثر حرية فى مواجهته لأمراض الحياة ، وعمل الخراج عندما يباشرون أخذهم للأموال من أصحاب الأرااق والأراضى . وأولها مرض إخفاء حقيقة مهمتهم عن الخليفة ، وإسداءهم الستر على أشياء كثيرة تحصل بين الناس . وهذا الإخفاء يتممه عمال الخراج والجباة . فيؤثرون على مصلحة الخليفة الحكم تأثيرا سيئا ، مضرا وفادحا . ويقترح ابن المقفع أن تحصى قطع الأرض ، وأن تكتب أسماء الملاك فى إضبارات رسمية ، ليعرف منها كل مالك وما يملك ، وما له وما عليه . ويؤدى كل مالك ما عليه من حق ، على ضوء قانون للأراضى معروف للكافة ، فى القرى والمدن.

ويصبح ابن المقفع فى رسالته أكثر حرية فى مواجهة أمراض الشعب الاجتماعية ، فهو يرى أنه لا صلاح للشعب ، ولا علاج لأمراضه إلا بصلاح الحاكم ، وصلاح خاصته وصحابته (حاشيته) بحيث يصيرون مثلا وقوة للناس ، وطيبهم أن يكونوا رقباء لأحوال الشعب مؤديين له



ومقومين لأدابه وعاداته. ولا طريق لإصلاح نفوس العامة بغير هذا الطريق ، فالناس على دين ملوكهم ورعوسهم. فأكثر الناس لا يستغنون برأى أنفسهم، ولا يحملون العلم ، ولا يبذلون بفعل الأصلاح في أمورهم. ونسى ابن المقفع أن يقول إنه لا سبيل إلى ذلك إلا بالتربية من الصغر ، والتعليم من الصبا ، وإشاعة المعارف الأدبية والخلقية والعلمية . ولم يكن لابن المقفع من سبيل في هذه الرسالة ، لمناقشة قضية الحكم في جوهرها . وإنما لجأ إلى التلذذ والنوران خوفا من الخليفة الحاكم المستبد برأيه ، الشامل حكمه لكل الأرض وما عليها ، والمتسلط بالحكم المطلق ، ويقوى المال ، والعسكر ، والجند، والوعاظ، والقصاصين، فقد كان القوق الحضارى والعقل فى زمانه ، همس نفوس ، لا يقدر أن يتجسد فى كلمة ، أو كلمات .



# رسائل الصَّحَابِ

وردت هذه الرسالة في :

- (١) جمهرة الرسائل.
- (٢) رسائل البلغاء.
- (٣) الأعمال الكاملة لابن المقفع.



لما بعد : أصلح الله أمير المؤمنين ، وأتم عليه النعمة ، والبسه المعافاة والصحة فإن أمير المؤمنين - حفظه الله - يجمع مع علمه ، المسألة والاستماع ، كما كان ولادة البشر يجمعون ، مع جهلهم ، العجب والاستغناء ؛ ويستوثق لنفسه بالحجة ويتخذها على رعيته فيما يلفظ له من الفحص عن أمورهم ، كما كان أولئك يكتفون بالدعة ، ويرضون بدخول الحجة <sup>(١)</sup> ونقطاع العز في الامتاع ، أن يجترئ عليهم أحد برأى أو خبر ، مع تسلط الدين.

وقد عصم الله أمير المؤمنين - حين أهلك عدوه وشفى غليله ، ومكن له في الأرض ، وأتاه ملكها وخزائنها - من أن يشغل نفسه بالتمنع والتفیش <sup>(٢)</sup> والتأمل والإتلاذ <sup>(٣)</sup> ، وأن يرضى مما لوى <sup>(٤)</sup> بالتمتع به ، وقضاء حاجة النفس منه ولكرم الله أمير المؤمنين باستهانة ذلك واستصغاره إياه . وذلك من أبين علامات السعادة وأنجح الأعوان على الخير .

وقد قص الله عز وجل علينا من نبأ يوسف بن يعقوب أنه لما تمت نعمة الله عليه ، وأتاه للملك وعلمه من تأويل الأحاديث ، وجمع له شمله ، وأقر عينه بأهويه ، وأخوته ، أثنى على الله عز وجل بنعمته ، ثم سلا عما كان فيه ، وعرف أن الموت وما بعده هو أولى ، فقال : توفني مسلماً وأحقني بالصالحين .

وفي الذي قد عرفنا من طريقة أمير المؤمنين ما يشجع ذا الرأى على مبادرته بالخبر فيما ظن أنه لم يبلغه إياه غيره ، وبالتذكير بما قد انتهى إليه . ولا يزيد صاحب الرأى على أن يكون مخبراً لو منكر ، وكل عند أمير المؤمنين مقبول إن شاء الله . مع أن مما يزيد ذوى الألباب نشاطاً إلى

(١) دخول الحجة : بطلانها . والفعل كمنع .

(٢) ويريد بالتفیش : الكبر والادلال ؛ يقال : فاش الرجل ، إذا افتخر . ولعل خير ما ينساق مع التفیش ، التمتع ، بمعنى العز ، وتمنع الرجل ، إذا اعتز وتسر .

(٣) التأمل : جمع المال واكتسابه ، وإتلاذه ، أى : تنميطه . يقال : تلذ المال يتلذ (بضم اللام وكسر ها) : ولد عنده ونجح ؛ وأتلاذته ألت .

(٤) لوى : جمع . ولوى ، بالقصر ، بمعنى لوى ؛ بالمد .

إعمال للرأى ، فيما يصلح الله به الأمة فى يومها لو غاب<sup>(١)</sup> دهرها ، الذى<sup>(٢)</sup> أصبحوا قد طمعوا فيه . ولعل ذلك أن يكون على يدى أمير المؤمنين ؛ فإن مع الطمع للجد ، ومع اليأس للعود . وقلما ضعف الرجاء إلا ذهب الرخاء . وطلب المؤيس<sup>(٣)</sup> عجز ، وطلب الطلمع حزم . ولم نترك الناس نحن ولا أبوانا إلا وهم يرون فيها خللا تقطع الرأى وتمسك بالأقواء ، من حال وال لم يهمه الإصلاح ، أو أهمه ذلك ولم يثق فيه بفضل رأى ، أو كان ذا رأى وليس مع رأيه صول بصرامة أو حزم ، أو كان ذلك استئثارا منه على الناس بنشب ، أو قلة تقدم لما يجمع أو يقسم ، أو حال أعوان يبتلى بهم الولا ليسوا على الخير بأعوان ، وليس له إلى اقتلاعهم سبيل ، لمكانهم من الأمر ، ومخافة الدول والفساد أن هو حاجهم أو انتقص ما فى أيديهم ، أو حال رعية متزرة<sup>(٤)</sup> ليس من أمرها النصف فى نفسها ، فإن أخذت بالشدة حميت وإن أخذت باللين طخت .

وكل هذه الخلائق قد طهر الله منها أمير المؤمنين فأتاه فى نيته ومقدرته وعزمه ، ثم لم يزل يرى ذلك منه الناس حتى عرفه منهم جهالهم فضلا عن علمائهم . وصنع الله لأمر المؤمنين لطف الصنع فى اقتلاع من كان يشركه فى أمره على غير طريقته ورأيه ، حتى أراحه الله وأمنه منهم ، بما جعلوا من الحجة والسبيل على أنفسهم ، وما قوى الله عليه أمير المؤمنين فى رأيه وإتباعه مرضاته ، وأذل الله لأمر المؤمنين رعيته بما جمع له من اللين والنفو ، فإن لأن لأحد منهم ففى الإلحان<sup>(٥)</sup> له شهيد ، على أن ذلك ليس بضعف ولا مصالحة ؛ وإن لشدت على أحد منهم ففى

(١) غير : مكث وذهب ، من الأضداد ، والمراد هنا الأول .

(٢) الذى ، اسم أن .

(٣) المؤيس (بتقديد الياء المفتوحة) : اسم مفعول من "يؤيس" إذا جعلته يقنط .

(٤) اتزر : ارتكب الوزر ، وهو الذنب .

(٥) الألحان : الأقلام .

العفو شهيد ، على أن ذلك ليس بحرف ولا خرق مع أمور سوى ذلك نكف عن ذكرها ، كرامة أن نكون كأننا نصيبنا للمدح.

فما أخلق هذه الأشياء أن تكون عتادا لكل جسيم من الخير في الدنيا والآخرة ، واليوم والغد ، والخاصة والعامة ، وما أرجانا لأن يكون أمير المؤمنين بما يصلح الله الأمة من بعده أشد اهتماما من بعض السلاوة بما يصلح رعيته في سلطانه . وما أشد ما قد استبان لنا أن أمير المؤمنين أطول بأمر الأمة عناية ، ولها نظرا وتقديرا ، من الرجل منا بخاصة أهله . ففي دون هذا ما بثبت الأمل ، وينشط للعمل ، ولا قوة إلا بالله ، والله الحمد ، وعلى الله التمام.

فمن الأمور التي يذكر بها أمير المؤمنين ، أمتع الله به ، أمر هذا الجند من أهل خراسان ، فإبهم جند لم يدرك مثلهم في الإسلام ، وفيهم صفة بها يتم فضيلهم إن شاء الله . أما هم فأهل بصر بالطاعة ، وفضل عدد الناس ، وعفاف نفوس وفروج ، وكف عن الفساد ، وذل للولاة . فهذه حال لا نعلمها توجد عند أحد غيرهم . ولما ما يحتاجون فيه إلى النفعة <sup>(١)</sup> ، من ذلك تقويم أيديهم ورأيهم وكلامهم ، فإن في ذلك القوم لخلطسا من رأس مفرط غال ، وتابع متحير شك . ومن كان إنما يصول على الناس بقوم لا يعرف منهم الموافقة في الرأي والقول والسيرة ، فهو كراكب الأسد الذي يوجل من رآه ، والراكب أشد وجلا . فلو أن أمير المؤمنين كتب أمانا معروفا بلينا وجيزا محيطا بكل شيء يجب أن يعملوا فيه أو يكفوا عنه ، بالغا في الحجة قاصرا عن الغلو ، يحفظه رؤساؤهم ، حتى يقودوا به دهاءهم ، ويتعهدوا به منهم من دونهم من عرض الناس <sup>(٢)</sup> ، لكان ذلك ، إن شاء الله ، لرأيهم صلاحا ، وعلى من سواهم حجة ، وعند الله عذرا ، فإن كثيرا من المتكلمين من قواد أمير المؤمنين اليوم إنما علمة كلامهم ، فهما يأمر الأمر ويزعم الزاعم ، أن أمير المؤمنين لو أمر الجبال أن تسير سارت ، ولو أمر أن تستدير للقبلة بالصلاة فعل ذلك ، وهذا كلام قل أن يسمعه من كان مخالفا ، ولما يرد في سمع السامع إلا أحدث في قلبه

(١) النفعة : العصاء يريد ما يحتاجون فيه إلى التكليب.

(٢) عرض الناس : علمتهم.

ربية وشكا . والذي يقول أهل القصد<sup>(١)</sup> من المسلمين هو للأمر ، وأعز  
للسلطان ، وأقمع المخالف ، وأرضى للموافق وثبتت العذر عند الله  
عز وجل .

فإننا قد سمعنا فريقا من الناس يقولون : لا طاعة للمخلوق في  
معصية الخالق ، بنوا قولهم هذا بناء معوجا ، قالوا : إن أمرنا الإمام  
بمعصية الله فهو أهل أن يعصى ، وإن أمرنا الإمام بطاعة الله فهو أهل أن  
يطاع ؛ فإذا كان الإمام يعصى في المعصية ، وكان غير الإمام يطاع في  
الطاعة ، فالإمام ومن سواه على حق الطاعة سواه ، وهذا قول معلوم  
يجده الشيطان ذريعة إلى خلق الطاعة والذي فيه أمنيته ، لكي يكون الناس  
نظائر ، ولا يقوم بأمرهم إمام ، ولا يكون على عثرهم منهم ثقل .

وسمعا آخرين يقولون : بل تطيع الأئمة في كل أمورنا بولا نفتش  
عن طاعة الله ولا معصيته ، ولا يكون أحد منا عليهم حسبي ، هم ولاة  
الأمر ، وأهل العلم ونحن الأتباع وعلينا الطاعة والتسليم .

وليس هذا القول بأقل ضررا في توهين السلطان وتهجين الطاعة  
من القول الذي قبله ؛ لأنه ينتهي إلى الفطيع المتفاحش من الأمر ، في  
استحلال معصية الله جهارا صراحا .

وقال أهل الفضل والصواب : قد أصاب الذين قالوا : لا طاعة  
لمخلوق في معصية الخالق ، ولم يصيبوا في تعطيلهم طاعة الأئمة  
وتسخيْفهم إياها . وأصاب الذين ألفوا بطاعة الأئمة لما حققوا منها ، ولم  
يصيبوا فيما أبهموا من ذلك في الأمور كلها .

فلما إقرارنا بأنه لا يطاع الإمام في معصية الله ؛ فإن ذلك في  
عزائم الفرائض والحدود التي لم يجعل الله لأحد عليها سلطانا ، ولو أن  
الإمام نهى عن الصلاة والصيام والحج ، أو منع الحدود وأباح ما حرم الله ،  
لم يكن له في ذلك أمر .

فلما إثباتنا للإمام الطاعة فيما لا يطاع فيه غيره ؛ فإن ذلك في  
الرأي والتبدير والأمر الذي جعل الله لأمره وعزاه بأيدي الأئمة ، ليس  
لأحد فيه أمر ولا طاعة ، من لفزوا بالقول ، والجمع والقسم ،  
والاستعمال والعزل ، والحكم بالرأي فيما لم يكن فيه أثر ، وإمضاء للحدود

(١) أهل القصد : أهل الاعتدال .



والأحكام على الكتاب والسنة ، ومحاربة العدو ومهادنته ، والأخذ للمسلمين والإعطاء عنهم . وهذه الأمور كلها ولتباهاها من طاعة الله عز وجل الواجبة ، وليس لأحد من الناس فيها حق إلا الإمام ، ومن عصى الإمام فيها أو خذله فقد أوتغ (١) نفسه .

وليس يفرق هذان الأمران إلا بمرهان من الله عز وجل ؛ وذلك أن الله جعل قوام للناس وصلاح معاشهم ومعادهم في خلقين : الدين والعقل ، ولم تكن عقولهم - وإن كانت نعمة الله عز وجل عظمت عليهم فيها - بالغة معرفة الهدى ، ولا مبلغة أهلها رضوان الله ، إلا ما أكمل لهم من النعمة بالدين الذي شرع لهم ، وشرح به صدر من أراد هداه منهم ثم لو أن الدين جاء من الله ، لم يغلر حرفا من الأحكام والرأى والأمر وجميع ما هو ولود على الناس وحادث فيهم ، مذ بعث الله رسول صلى الله عليه وسلم إلى يوم يلقونه ، إلا جاء فيه بعزيمة ، لكانوا قد كلفوا غير وسمعهم ، فضيق عليهم في دينهم ، وقامهم ما لم تتسع أسماعهم لاستماعه ، ولا قلوبهم لفهمه ، ولحارث عقولهم ولتبايهم للتي أمكن الله بها عليهم ، ولكانت لغوا لا يحتاجون إليها في شيء ، ولا يعملونها إلا في أمر قد أتاهم به تنزيل ؛ ولكن الله من عليهم بدينهم الذي لم يكن يسعه رأسهم كما قال عباد الله المتقون : "وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله".

ثم جعل ما سوى ذلك من الأمر والتكبير إلى الرأى ، وجعل الرأى إلى ولاية الأمر ، ليس للناس في ذلك الأمر ، شيء إلا الإشارة عند المشورة ، والإجابة عند الدعوة والنصيحة بظهر الغيب .

ولا يستحق الولي هذه الطاعة إلا بقامة العزائم والمنن مما هو في معنى ذلك . ثم ليس من وجوه القول وجه يلتمس فيه إثبات فضل أهل بيت أمير المؤمنين على أهل كل بيت ، وغير ذلك مما يحتاج للناس إلى ذكره ، إلا وهو موجود فيه من الكلام الفاضل المعروف ما هو أبلغ مما يغلو فيه الغالون ؛ فإن الحجة ثابتة والأمر واضح بحمد الله ونعمته .

ومما ينظر فيه لصلاح هذا الجند ألا يولى أحدا منهم شيئا من الخراج ؛ فإن ولاية الخراج مفسدة للمقاتلة . ولم يزل الناس يتحاملون ذاك منهم ويلحونه عنهم ، لأنهم أهل دالة ودعوى بلاء ، وإذا كفوا جلابا

---

(١) أوتغ نفسه : أهلكها .

للدراهم والدنانير أجتزأوا عليهما. وإذا وقعوا فى الخيانة صار كل أمرهم مدخولا : نصيحتهم وطاعتهم ، فإن حيل بينهم وبين وضعه أخرجتهم الحماية <sup>(١)</sup> . مع أن ولاية للخراج داعية إلى ذلة وحقيرة <sup>(٢)</sup> وهوان ، وإنما منزلة للمقاتل منزلة للكرامة واللفظ.

ومما ينظر فيه من أمرهم أن منهم من المجبولين من هو أفضل من بعض قادتهم ، فلو التمسوا وصنعوا <sup>(٣)</sup> كانوا عدة وقوة ، وكان ذلك صالحا لمن فوقهم من القادة ومن دولهم من العامة .

ومن ذلك تمهد أدبهم فى تعلم الكتاب ، والتفقه فى السنة ، والأمانة والعصمة ، والمباينة لأهل للهوى بآن يظهر فيهم من القصد والتواضع ولجنتاب رأى المترفين وشكلهم مثل الذى يأخذ به أمير المؤمنين فى أمر نفسه ، ولا يزال يطلع عليه من أمير المؤمنين ويخرج منه من القول ، مما يعرف به مقته للاجتراف والإسراف وأهلهما ، ومحبة القصد والتواضع ومن أخذ بهما ، حتى يعلموا أن معروف أمير المؤمنين محظور عن يكره بخلا ، أو نفقه سرفا فى العطر واللباس والمغالات بالنساء والمراتب ، وأن أمير المؤمنين يؤثر بالمعروف من وجهته المعروف والمواساة.

ومن ذلك أمر أرزاقهم ، أن يوقت لهم أمير المؤمنين وقتا يعرفونه فى كل ثلاثة أشهر أو أربعة أو ما بداله ، وأن يعلم عامتهم العذر الذى فى ذلك ، من إقامة ديوانهم وجمل أسمائهم ، ويعلموا الوقت الذى يأخذون فيه ، فيقطع الاستبطاء والشكوى ؛ فإن الكلمة الواحدة تخرج من أحدهم فى ذلك أهل أن تستعظم ، وإن باب ذلك جدير أن يصم مع أن أمير المؤمنين قد علم كثرة أرزاقهم ، وكثرة المال الذى يخرج لهم ، وأن هذا للخراج إن يكن رائجا لغلاء السعر ، فله لا بد من الكساد والكسر ، وأن لكل شىء درة وغزارة ، وإنما درور خراج العراق بارتفاع الأسعار ، وإنما يحتاج الجند اليوم إلى ما يحتجون إليه من كثرة الرزق لغلاء السعر.

(١) وضعه: وضع الخراج : حطه وانقصاه . والحماية: الألفة .

وأخرجتهم ، أى جعلتهم يشقون عصا لطاعة.

(٢) الحقيرة (بالضم): الذلة، من مصادر حق.

(٣) صنعوا: أحسن إليهم.

فمن حسن التقدير ، إن شاء الله ، ألا يدخل على الأرض ضرر ، ولا يبيت المال نقصان من قبل الرحمن ، إلا دخل ذلك عليهم فى أرزاقهم . مع أنه ليس عليهم فى ذلك نقصان ؛ لأنهم يشترون بالقليل مثل ما كانوا يشترون بالكثير .

فأقول : لو أن أمير المؤمنين خلى <sup>(١)</sup> شيئاً من الرزق ، فيجعل بعضه طعاماً ، ويجعل بعضه علماً ، وأعطوه بأعيانه ، فإن قومت لهم قيمته فخرج ما خرج على حسابة <sup>(٢)</sup> قيمة الطعام والعلف ، لم يكن فى أرزاقهم لذلك نقصان عاجل يستكروه ، وكان ذلك مدرجة لثباتهم فى نزاهتهم على العدو ، وإتصاف بيت المال من أنفسهم فيما يشتغلون ، مع أنه إن زاد السعر أخذوا بحصتهم من فضل ذلك .

ومن جماع الأمر وقوامه ، بإذن الله ، أن لا يخفى على أمير المؤمنين شيئاً من أخبارهم وحالاتهم وباطن أمرهم بخراسان والعسكر والأطراف ، وأن يحتقر فى ذلك للنفقة ، ولا يستعين فيه إلا بالثقات للنصاح ، فإن ترك ذلك ولتأباهم لحق بتاركة من الاستعانة فيه بخير الثقة ، لتصير مغبته للجهالة والكذب .

ومما يذكر به أمير المؤمنين ، لمتع الله به ، أمر هذين المصرين <sup>(٣)</sup> ، فبأنهم بعد أهل خراسان لقرب الناس إلى أن يكونوا شيعته وحقيته <sup>(٤)</sup> ، مع اختلاطهم بأهل خراسان ، وأنهم منهم علمتهم ، وإنما ينظر أمير المؤمنين منهم .. <sup>(٥)</sup> صدق ، ولربطتهم ، وما لراد من أمورهم معرفته استعان أهل خراسان على ذلك من أمرهم ، مع الذى فى ذلك من

(١) خلى : انتقص واقتطع .

(٢) الحسابة : الحساب .

(٣) البصرة والكوفة .

(٤) حقيته : خاصته وموضع سره .

(٥) كان يجب أن يكون للكلام أوضح حتى يفهم ولكن سقوط بعض الألفاظ حال دون للوضوح .

خبال<sup>(١)</sup> الأمر واختلاف الناس بالناس : للعرب للعجم ، وأهل خراسان بالمصريين.

إن في أهل العراق يا أمير المؤمنين من الفقه والعفاف والأكساب والأمانة شيئاً لا يكاد يشك أنه ليس في جميع من مواهم من أهل القبلة مثله ولا مثل نصفه ، فلو أراد أمير المؤمنين أن يكتفى في جميع ما يلتزم له بأهل هذه الطبقة من الناس رجونا أن يكون ذلك فيهم موجوداً . وقد أرى بأهل العراق في تلك الطبقة أن ولاية العراق فيما مضى كانوا أشرار الولاية ، وإن أعوانهم من أهل أمصارهم كانوا كذلك ، فحمل جميع أهل العراق على ما ظهر من أولئك الفصول<sup>(٢)</sup> ، وتعلق بذلك أعداؤهم من أهل الشام فتعموه عليهم . ثم كانت هذه الدولة ، فلم يتعلق من دونكم من الوزراء والعمال إلا بالأقرب فالأقرب ممن دنا منهم ، أو وجدوه بسبيل شيء من الأمر ، فوقع رجال مواقع شائنة لجميع أهل العراق حيثما وقعوا من صحابة خليفة ، أو ولاية عمل ، أو موضع أمانة ، أو موطن جهاد . وكان من رأى أهل الفضل أن يقصدوا حيث يلتصقون ، فأبطل ذلك بهم أن يعرفوا وينتفع بهم . وإن كان صاحب السلطان ممن لم يعرف الناس قبل أن يليهم ، ثم لم يزل يسأل عنهم من يعرفهم ويستثبت في استقصائهم ، زالت الأمور عن مراكزها ، ونزلت الرجال عن منازلها ؛ لأن الناس لا يلقونه إلا متصنعين بأحسن ما يقدرون عليه من الصمت والكلام . غير أن أهل هذا النقص هم أشد تصنعاً ، وأعلى السنة ، وأرق تطفلاً للوزراء أو تمحلاً لأن يثني عليهم من وراء وراء . فإذا أثر لوالى أن يستخلص رجلاً واحداً ممن ليس لذلك أهلاً ، دعا إلى نفسه جميع ذلك الشرج<sup>(٣)</sup> ، وطعموا فيه ، وأجترعوا عليه ، وتواردوه وتزاحموا على ما عنده . وإذا رأى ذلك أهل الفضل كنوا عنه ، وباعدوا منه ، وكروهوا أن يروا في غير موضعهم ، لو يزاحموا غير نظرائهم .

(١) خبال الأمر : اضطرابه واختلاطه.

(٢) الفصول : الضعاف الأتنياء

(٣) الشرج : المثل والنوع.

ومما ينظر أمير المؤمنين فيه من أمر هذين المصريين وغيرهما من الأمصار والفنولحى ، اختلاف هذه الأحكام المتناقضة التى قد بلغ اختلافها أمرا عظيما فى الدماء والفروج والأموال ، فيستحل الدم والفروج بالحيرة ، وهما يحرمان بالكوفة ، ويكون مثل ذلك الاختلاف فى جوف الكوفة ، فيستحل فى ناحية منها ما يحرم فى ناحية أخرى . غير أنه على كثرة الولاء نافذ على المسلمين فى دمائهم وحرمهم ، يقضى به قضاء جائز أمرهم وحكمهم . مع أنه ليس ممن ينظر فى ذلك من أهل العراق وأهل الحجاز فريق إلا قد لج بهم للعجب بما فى أيديهم ، والاستخفاف بمن سواهم ، فاقبحهم ذلك فى الأمور التى يتبجح<sup>(١)</sup> بها من سمعها من ذوى الألباب.

لما من يدعى لزوم السنة منهم فيجعل ما ليس سنة سنة ، حتى يبلغ ذلك به إلى أن يسفك الدم بغير بينة ولا حجة على الأمر الذى يزعم أنه سنة . وإذا سئل عن ذلك لم يستطع أن يقول هريق<sup>(٢)</sup> فيه دم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أئمة الهدى من بعده ، وإذا قيل له : أى دم سفك على هذه السنة لئلا تزعمون ؟ قال : فعل ذلك عبد الملك بن مروان أو أمير من بعض أولئك الأمراء . وإنما يأخذ بالرأى به الاعتزام على رأيه أن يقول فى الأمر الجسيم من أمر المسلمين ، قولا لا يوافق عليه أحد من المسلمين ، ثم لا يستوحش لانفراده بذلك ولمضائه الحكم عليه ، وهو مقر أنه رأى منه لا يحتج بكتاب ولا سنة فلو رأى أمير المؤمنين أن يأمر بهذه القضية والسير المختلفة فترفع إليه فى كتاب ، ويرفع معها ما يحتج به كل قوم من سنة وقياس ، ثم نظر فى ذلك لمسير المؤمنين ولمضى فى كل قضية رأيه الذى يلهمه الله ، ويعزم عليه عزمًا وينهى عن القضاء بخلافه ، وكتب بذلك كتابا جامعًا ، أرجونا أن يجعل الله هذه الأحكام المختلطة للصواب بالخطأ حكما واحدا صوابا ، لرجونا أن يكون اجتماع السير قرينة لإجماع الأمر برأى أمير المؤمنين وعلى لسانه ، ثم يكون ذلك من إمام آخر الدهر ؛ إن شاء الله.

(١) يتبجح بها: يهيج.

(٢) هريق: أريق، أسيل.

فأما لاختلاف الأحكام ، إما شيء مأثور عن السلف غير مجمع عليه ، يدبره قوم على وجه ويدبره آخرون على آخر ، فينظر فيه إلى أحق الفريقين بالتصديق ، وإشبه الأمرين بالعدل ؛ وإما رأى لجراء أهله على القياس فاختلف واقتشر ، بخلط في أصل المقايسة ، وابتداء أمر على غير مثاله . ولما أطول ملازمته للقياس ؛ فإن من أراد أن يلزم القياس ولا يفارقه أبداً في أمر الدين والحكم ، وقع في الورطيات ، ومضى على الشبهات ، وغمض على القبيح الذي يعرفه ويبصره ، فأبى أن يتركه كراهة ترك القياس . وإنما القياس دليل يستدل به على المحاسن ، فإذا كان ما يقود إليه حسناً معروفاً أخذ به ، وإذا قاد إلى القبيح المستنكر ترك ؛ لأن المبتغى ليس عين القياس ينبغي ، ولكن محاسن الأمور ومعروفها وما الحق الحق بأهله . ولو أن شيئاً مستقيماً على الناس ومقادير حيث قيد لكان الصدق هو ذلك ، ولا يعتبر بالمقاييس ، فإنه لو أراد أن يقوده الصدق لم يندلج له ؛ وذلك أن رجلاً لو قال : تأمرني أن أصدق فلا لأكذب كذبة أبداً ؟ لكان جوابه أن تقول : نعم . ثم لو التمس منه قول ذلك ، فقال : أأصدق في كذا وكذا ؟ حتى تبلغ به أن يقول للصدق في رجل هارب استدلته عليه طالب ليظلمه فيقتله ، لكسر عليه قياسه ، وكان الرأي له أن يترك ذلك وينصرف إلى المجمع عليه المعروف المستحسن .

ومما يذكر به أمير المؤمنين أهل الشام ، فإنهم أشد الناس مؤونة وأخوفهم عداوة وبائقة<sup>(١)</sup> ، وليس يؤاخذهم أمير المؤمنين بالعداوة ولا يطمع منهم في الاجتماع على المودة . فمن الرأي في أمرهم أن يختص أمير المؤمنين منهم خاصة ممن يرجو عنده صلاحاً ، أو يعرف منه نصيحة أو وفاء ، فإن أولئك لا يلبثون أن ينفصلوا عن أصحابهم في الرأي والهوى ، ويدخلوا فيما حملوا عليه من أمرهم ، فقد رأينا أشباه أولئك من أهل العراق الذين استنخلهم أهل الشام . ولكن أخذ في أمر أهل الشام على القصاص : حرموا كما كفوا يحرمون الناس ، وجعل فيهم إلى غيرهم كما كان فيء غيرهم إليهم ، ونحوا عن المنابر والمجالس السابقة والأعمال ، كما كانوا ينحون عن ذلك من لا يجهلون فضله في السابقة والمواضع ،

(١) البائقة : للخطر .

ومنعت منهم المرافق كما كانوا يمنعون الناس أن ينالوا معهم أكلة من الطعام الذي يصنعه أمرؤهم للعلمة.

فإن رغب أمير المؤمنين لنفسه عن هذه السيرة وما أشبهها ، فلم يعارض ما عاب ، ولم يمثل ما سخط ، كان العدل أن يقتصر بهم على فيئهم ، فيجعل ما خرج من كور الشام فضلا من النفقات ، وما خرج من مصر فضلا من حقوق أهل المدينة ومكة <sup>(١)</sup> ، بأن يجعل أمير المؤمنين ديوان مقاتلتهم ديوانهم ، لو يزيد أو ينقص ، غير أنه يسأخذ أهل القوة والغناء بخفة المؤنة والخفة في الطاعة ، ولا يفضل أحدا منهم على أحد إلا على خاصة معلومة . ويكون الديوان كالغرض المستألف . ويأمر لكل جند من أجناد الشام <sup>(٢)</sup> بعدة من العيالة <sup>(٣)</sup> يقرعون عليها ، ويسوى بينهم فيما لم يكونوا أسوة فيه فيما مان من عيالتهم <sup>(٤)</sup> ، فلا يضيع أحد من المسلمين .

وأما ما يتخوف المتخوفون من نزواتهم ، فلمرى لأن أخذوا بالحق - ولم يؤخذوا به - إنهم لخلقاء ألا تكون لهم نزوات ونزقات . ولكنا على مثل اليقين ، بحمد الله ، من أنهم لم يشغفوا بذلك إلا أنفسهم ، وأن الدائرة <sup>(٥)</sup> لأمير المؤمنين عليهم ، آخر الدهر ، إن شاء الله ، فإنه لم يخرج الملك من قوم إلا بقيت فيهم بقية يتوثبون بها ، ثم كان ذلك التوثب هو سبب استئصالهم وتكويخهم .

ومما يذكر به أمير المؤمنين أمر أصحابه فإن ، من لولى أمر الوالى بالتثبت والتخير ، أمر أصحابه الذين هم فلأوه ، وزينة مجلسه ، والسنة رعيته ، والأعوان على رأيه ، ومواضع كرامته ، والخاصة من

---

(١) أى يجعل ما خرج زائدا من كور الشام فى النفقات ، وما خرج زائدا من كور مصر فى حقوق أهل المدينة . ومكة .

(٢) أجناد الشام : خمس كور : دمشق وحمص وقسرين والأردن وفلسطين . وهذه للخمسة أمكن كل واحد منها يسمى جندا ؛ أى : المقيمين بها من المسلمين للمقاتلين .

(٣) العيالة : للكفاية من المؤمن ، يقال : عاله عيالة ، إذا كفاه وأنفق عليه .

(٤) أى : يسوى بينهم فيما يكفهم ويحولهم .

(٥) الدائرة : العيلة .

عامته؛ فإن أمر هذه الصحابة قد عمل فيه من كان وليه من الوزراء والكتاب قبل خلافة أمير المؤمنين عملاً قبيحاً مغرط القبح ، مقسداً للحسب والأدب والمياسة ، داعياً للأشرار ، طارداً للأخيار ، فصارت صحبة الخليفة أمراً سخيفاً ، قطع فيه الأوغاد ، وتزهد إليه من كان يرغب فيما دونه ، حتى إذا لقينا لباً للعبد - رحمة الله عليه - وكنت في ناس من صلحاء أهل البصرة ووجوههم ، فكنت في عصبة منهم أبوا أن يأتوه ، فمنهم من تغيب فلم يقدم ، ومنهم من هرب بعد قدومه لاختياراً للمعصية على سوء الموضوع ، لا يعتدرون في ذلك إلا بضياح المكتب والدعوة والمدخل<sup>(١)</sup> ، يقولون : هذه منزلة كان من هو أشرف من أبنائنا يرغبون فيما هو دونها عند من هو أصغر من أمراء ولاتنا اليوم ، ولكنها قد كانت مكرمة وحسباً ، إذ الناس ينظرون ويسأل عنهم . فأما اليوم ، ونحن نرى فلاناً وفلاناً ينفرون بأسمائهم ، على غير قديم سلف ، ولا بلاه حدث ، فمن يرغب فيما هاهنا يا أمير المؤمنين أكرمك الله ، إلا أن يصير العدل كله إلى تقوى الله عز وجل ، وإنزال الأمور منازلها ؛ فإن الأول قال : لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم .

ولا سراة إذا جهلهم سادوا

وقال :

هم سودوا نصرا ، وكل قبيلة

يبين عن أحلامها من يسودها

وإن أمر هذه الصحابة قد كان فيه أعاجيب دخلت فيها مظالم . أما العجب فقد سمعنا من الناس من يقول : ما رأينا أعجوبة قط أعجب من هذه الصحابة ، ممن لا ينتهي إلى أدب ذي نباهة ، ولا حسب معروف ، ثم هو مسخوط الرأي ، مشهور بالفجور في أهل مصره ، قد غير عامة دهره صناعاً يعمل بيده ، ولا يعتد مع ذلك ببلاء ولا غناء ، إلا أنه مكنه من

(١) المكتب ، أى : الكتبة . ويريد بالدعوة : الأذن . والمدخل : الدخول على الخليفة .



الأمر صاغ<sup>(١)</sup> ، ففتهمى إلى حيث أحب ، فصار يؤذن له على للخليفة قبل كثير من أبناء المهاجرين والأنصار ، وقبل قرابة أمير المؤمنين وأهل بيوتات العرب ، ويجرى عليه من الرزق للضعف مما يجرى على كثير من بنى هاشم وغيرهم من سروات قريش ، ويخرج له من المعونة على نحو ذلك. لم يضعه بهذا للموضع رعاية رحم ، ولا فقه في دين ، ولا بلاه في مجاهدة عنو معروفة ماضية شائعة قديمة ، ولا غناء حديث ، ولا حاجة إليه في شيء من الأشياء ، ولا عدة يستعد بها ، وليس بفارس ولا خطيب ولا علامة ، إلا أنه خدم كتبها أو حاجبا ، فأخبره أن الدين لا يقوم إلا به ، حتى كتب كيف شاء ، ودخل حيث شاء.

وأما المظلمة التي دخلت في ذلك فعظيمة ، قد خصت قريشاً ، وعمت كثيراً من الناس ، وأدخلت على الأصحاب والمروءات محنة شديدة وضيقاً كثيراً ؛ فإن في إذن الخليفة في التدخل عليه والمجلس عنده ، وما يجرى على صحابته من الرزق والمعونة ، وتفضيل بعضهم على بعض في ذلك ، حكماً عظيماً على الناس في أنسابهم وأخطارهم وبلاء أهل البلاء منهم. وليس ذلك كخوارج المعروف ولطيف المنزل أو الأعمال يختص بها المولى من أحب ، ولكنه باب من القضاء جسيم عام ، يقضى فيه للماضين من أهل السوابق ، والباقيين من أهل المآثر ، وأهل البلاء والغناء بالعدل أو بما يخال فيه عليهم ، فإن أحق المظالم بتعجيل الرفع والتغيير ما كان ضرره عائياً ، وكان السلطان سائناً ، ثم لم يكن في رفعه مؤنة ولا شغب ولا توغير لصدور عامة ، ولا للقسوة والإضرار سبب.

ولصحابه أمير المؤمنين - أكرمه الله - مزية وفضل وهي مكرمة سننية ، حرية أن تكون شرفاً لأهلها ، وحسباً لأعقابهم ، وحقيقة أن تصان وتحظر ، ولا يكون فيها إلا رجل بدر بخصلة من الخصال ، أو رجل له عند أمير المؤمنين خاصة بقرابة أو بلاه ، أو رجل يكون شرفه ورأيه وعمله أهلاً لمجالس أمير المؤمنين وحديثه ومشورته ، أو صاحب نجدة يعرف بها ويستعد لها يجمع مع نجدة حسباً وعقلاً ، فيرفع من الجند إلى الصحابة ، أو رجل فقيه مصلح يوضع بين أظهر الناس لينتفعوا

(١) صاغ إليه : مال .

بصلاحه وفقهه ، أو رجل شريف لا يقصد نفسه أو غيرها . فلأما من يتوسل بالشفاعات ، فإنه يكتفى أو يكتفى له بالمعروف والبر فيما لا يهجن رأيا ، ولا يزيل أمرا عن مرتبته . ثم تكون تلك الصحابة المخلصات على منازلها ومدخلها ، لا يكون للكتب فيها أمر فسى رفع رزق ولا وضعه ، ولا للحاجب في تقديم إذن ولا تأخير.

ومما يذكر به أمير المؤمنين ، أمر فتیان أهل بيته وبنی لبيه وبنی على وبنی للعباس ، فإن فيهم رجالا لو متعوا بجسام الأمور والأعمال سدوا وجوها ، وكافوا عدة لأخرى.

ومما يذكر به أمير المؤمنين أمر الأرض والخراج فإن أجسم ذلك وأعظمه خطرا ، وأشدّه مؤونة ، وأقربه من الضياع ، ما بين سهله وجبله ، ليس له تصوير على الرساتيق <sup>(١)</sup> والقرى ، فليس للعمال أمر ينتهون إليه ، ويحاسبون عليه ، ويحول بينهم وبين الحكم على أهل الأرض بعد ما يتلقون لها في العمارة ، ويرجون لها فضل ما تعمل أيديهم ، فسيرة العمال فيهم إحدى ثنتين : إما رجل أخذ بالفرق والعنف من حيث وجده ، وتتبع الرجال والرساتيق بالمغالاة ممن وجده ؛ وإما رجل صاحب مساحة يستخرج ممن زرع ، ويترك من لم يزرع ، فيخرج من عمر ويسلم من أخرب . مع أن أصول الوظائف على الكور لم يكن لها ثبت ولا علم ، وليس من كورة إلا وقد غيرت وظيفتها مرارا ، فخفيت وظائف بعضها ، وبقيت وظائف بعض . فلو أن أمير المؤمنين أعمل رايه في التوظيف على للرساتيق والقرى والأرضين وظائف معلومة ، وتدوين الدواوين بذلك ، وإثبات الأصول ، حتى لا يؤخذ رجل إلا بوظيفة قد عرفها وضمناها ، ولا يجتهد في عمارة إلا كان له فضلها ونفعها ، لرجونا أن يكون فسى ذلك صلاح للرعية ، وعمارة للأرض ، وحسم لأبواب الخيلانة وغشم <sup>(٢)</sup> العمال.

(١) الرساتيق : القواحي؛ الواحد رستاق (بالضم) معرب.

(٢) الغشم : الظلم.

وهذا رأى مؤونته شديدة ، ورجاله قليل ، ونفقه متأخر ، وليس بعد هذا فى أمر الخراج إلا رأى قد رأينا أمير المؤمنين أخذ به ، ولم نره من أحد قبله ، من تخير للعمال وتقدهم ، والاستعاب لهم ، والاستبدال بهم . ومما يفكر به أمير المؤمنين جزيرة العرب من الحجاز واليمن واليمامة وما سوى ذلك ، أن يكون من رأى أمير المؤمنين ، إذا سخط نفسه عن أموالها من الصدقات وغيرها ، أن يختار لولايتها الخيار من أهل بيته وغيرهم ؛ لأن ذلك من تمام الصورة العادلة ، والكلمة الحسنة التى قد رزق الله أمير المؤمنين وأكرمه بها من الرأى الذى هو بإذن الله حمى ونظام لهذه الأمور كلها فى الأمصار والأجناد والذخور والكور .

إن بالناس من الاستجراح <sup>(١)</sup> والفساد ما قد علم أمير المؤمنين ، وبهم من الحاجة إلى تقويم أدبهم وطرائقهم ما هو أشد من حاجتهم إلى أقوالهم التى يعيشون بها . وأهل كل مصر وجدد لو شرف فقراء إلى أن يكون لهم من أهل الفقه والسنة والسير والنصيحة مؤدبون مقومون يذكرون ، ويبصرون الخطأ <sup>(٢)</sup> ، ويعظون عن الجهل ، ويمنعون عن البدع ، ويحذرون الفتن ، ويتفقدون أمور عامة من هو بين أظهرهم حتى لا يخفى عليهم منها مهم ، ثم يستصلحون ذلك ، ويعالجون ما استكروا منهم بالرأى والرفق والنصح ، ويرفعون ما أسيأهم إلى ما يرجون قوته عليهم ، مأمونين على سير ذلك وتحصينه ، بصراء بالرأى حين يبدؤ ، وأطباء باستئصاله قبل أن يتمكن .

وفى كل قوم خواص رجال عندهم على هذا معونة إذا صنعوا لذلك ، وتلطف لهم وأعينوا على رأيهم ، وقوا على معاشهم ، ببعض ما يفرغهم لذلك ، ويبسطهم له ، وخطر هذا جسيم فى امرين : أحدهما ، رجوع أهل الفساد إلى الصلاح ، وأهل الفرقة إلى الألفة ؛ والأمر الآخر أن لا يتحرك متحرك فى أمر من أمور العلماء إلا وعين ناصحة ترمقه ، ولا يهمس هامس إلا وأذن شفيقة تصيح نحوه ، وإذا كان ذلك لا يقدر أهل

---

(١) الاستجراح : الفساد والعيب .

(٢) يبصرون الخطأ : يعرفونه ويوضحونه .

الفساد على تريض الأمور وتلقيحها ، وإذا لم تلقح كان نتائجها بإذن الله مأمونا.

وقد علمنا علما لا يخالطه شك أن عامة قط لم تصلح من قبل نفسها، وأنها لم يأتها الصلاح إلا من قبل إمامها ؛ وذلك لأن عدد الناس في ضعفهم<sup>(١)</sup> وجهالهم الذين لا يستغفون برأى أنفسهم ، ولا يحملون العلم ، ولا يتقنمون في الأمور . فإذا جعل الله فيهم خواص من أهل الدين والعقول ، ينظرون إليهم ويسمعون منهم ، واهتمت خواصهم بأمور عولمهم ، وأقبلوا عليها بجد ونصح ومثابرة وقوة ، جعل الله ذلك صلاحا لجماعتهم ، وسببا لأهل الصلاح من خواصهم ، وزيادة فيما أنعم الله به عليهم وبلاغا إلى الخير كله.

وحاجة الخواص إلى الإمام الذي يصلحهم الله به كحاجة العامة إلى خواصهم وأعظم من ذلك. فبالإمام يصلح الله أمرهم ، ويكبت أهل الطعن عليهم ، ويجمع رأيهم وكلمتهم ، ويبين لهم عند العلة منزلتهم . ويجعل لهم الحجة والأيد في المقال على من نكب عن سبيل حقهم.

فلما رأينا هذه الأمور ينظم بعضها ببعض ، وعرفنا من أمر أمير المؤمنين ما يمثل جماع الله خواص المسلمين على الرغبة في حسن المعونة والمؤازرة والمشي في صلاح علمتهم ، طمعا لهم في ذلك ، يا أمير المؤمنين ، وطمعا فيه لعلمتهم ورجونا أن لا يعمل بهذا الأمر أحد إلا رزقه الله المتابعة فيه والقوة عليه ، فإن الأمر إذا أعلن على نفسه جعل للقاتل مقالا، وهيا للساعي نجلا . ولا حول ولا قوة إلا بالله ؛ وهو رب الخلق ، وولي الأمر ، يقضى في أمورهم ، ويدبر أمرهم بقدره عزيزة ، وعلم سابق. فنسأله أن يعزم لأمر المؤمنين على المرشد ، ويحصله بالحفظ والثبات. والسلام ، والله الحمد والشكر.

---

(١) الضعفة والضعاف : جمع ضعيف.

## المصادر والمراجع:

- |                           |                     |
|---------------------------|---------------------|
| الكامل في التاريخ         | ابن الاثير          |
| النجوم الزاهرة            | ابن تغرى بردى       |
| مقدمة ابن خلدون           | ابن خلدون           |
| وفيات الأعيان             | ابن خلكان           |
| كتاب الطبقات الكبير       | ابن سعد             |
| وفات الوفات               | ابن شاکر الکتبی     |
| الفخرى في الأدب السلطانية | ابن طباطبا          |
| فتوح مصر                  | ابن عبد الحكم القدس |
| العقد الفريد              | ابن عبد ربه         |
| الإمامة والميمنة          | ابن قتيبة           |
| سيرة ابن هشام             | ابن هشام            |
| "رسالة الصحابة"           | ابن المقفع          |
| الدعوة إلى الإسلام        | أرنولد توماس        |
| كتاب الخراج               | أبو يوسف            |
| الفرق بين الفرق           | البغدادي            |
| فتوح البلدان              | البلاذري            |
| تاريخ دولة آل سلجوق       | البنداري            |
| الدعوة إلى الإسلام        | توماس أرنولد        |
| تاريخ الخلفاء             | جلال الدين السيوطي  |
| تاريخ الإسلام السياسي     | حسن إبراهيم حسن     |
| والثقافي والاجتماعي       |                     |
| الوزراء والكتاب           | الجشيارى            |
| تاريخ بغداد               | الخطيب البغدادي     |
| الأخبار الطوال            | الدينوري            |
| أئمة الإسلام الأربعة      | مليمان فياض         |
| المال والنحل              | الشهرستاني          |

تاريخ الأمم والملوك	الطبري
الفننة الكبرى	طه حسين
أصول الحكم	علي عبد الرازق
آثار البلاد وأخبار العباد	القزويني
إخبار العلماء بأخبار الحكماء	القفطي
كتاب للولاة والقضاة	الكندي
الأحكام السلطانية	الماوردي
تاريخ المذاهب الإسلامية	محمد أبو زهرة
الخلافة الإسلامية	محمد سعيد العشماوي
الخراج	محمد ضياء الدين الريس
نفخ الطيب	المقري
فرق الشيعة	النويختي
تاريخ اليعقوبي	اليعقوبي

---

## الفهرس:

---

الموضوع	رقم الصفحة
المقدمة	5
مدخل : لماذا اختلف المسلمون؟	19
الفصل الأول: خلافت القهر الإسلامية	33
الفصل الثاني: نظرية الخلافة عند الفرق الإسلامية	63
والفلاسفة المسلمين	75
الفصل الثالث: مصارع خلفاء القهر ووزرائهم	89
الفصل الرابع: الحالة الاقتصادية والاجتماعية	109
في خلافت القهر	125
الفصل الخامس: الفتن والثورات في خلافت القهر	155
الفصل السادس: أمة الإسلام بين اضطهاد	181
الفرق وخلفاء القهر	
ملحق: رسالة الصحابة لابن المقفع	
قائمة المراجع	

---









هذا الكتاب

استندنا ههنا نكتبه عن عصور الخلافة الإسلامية في كتب  
التربية والتعليم، وههنا نقوله على السنة فقهاء ودعاة، أن نتحدث عن  
ازدهارات للخلافات الإسلامية وتجاهلنا مثالب هذه الخلافات، وصور  
قهرها للشعوب، ولأبناء هذه الشعوب، ومعن الفقهاء، والعلماء والكتاب  
والوزراء، في ظل خلافات القهر، وسلبيها لحقوق هذه الشعوب المسلمة في  
تقريب مصيرها وتجاهلنا أن صور التقدم والازدهار، برغم قهر هذه  
الخلافات صنعتها شعوب وأفراد، جنوا ثمار حضارات سابقة، وأضاهوا  
إليها وهابتنا من هذا الكتاب أن نستل من كتب المؤرخين المسلمين، القدامى  
منهم والمحدثين، ومن تعليقات هؤلاء المؤرخين، صور هذا الوجه الآخر  
الضيق لخلافات القهر الإسلامية، ونصفها بين أيدي القارئ عامة  
والداهين اليوم إلى عودة النظام الطلاهي خاصة